الفصل الرابع

الاستعمار وفلسطين

شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد

أما مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها، كمدن الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمركم الرب إلهكم، لكى لا يعلموكم رجاساتهم التى مارسوها فى عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم.

[التثنية ٢٠ : ١٦ - ١٨]

تعد مجموعة العناصر التى تشكل الأيديولوچية الصهيونية[1] معقدة ومركبة أكثر من تلك التى كانت تدعم القومية الأفريقانية. وعلى الرغم من أن هاتين الأيديولوچيتين تلتقيان فى نقاط كثيرة، إلا أنهما تحققتا فى ظروف اجتماعية مختلفة. وفى هذا الصدد يتعين علينا دراسة ما إذا كان المؤرخون الصهاينة قد صنعوا التاريخ اليهودى مثلما قام بذلك الأيديولوچيون الأفريقان حيث ابتدعوا ميثولوچيا قوميتهم. وقد لعب الكتاب المقدس فى حالة الصهيونية دورًا مهمًّا بشكل خاص. و إذا كان مستعمرو أمريكا الجنوبية وجنوب أفريقيا قد بذلوا جهودًا حثيثة لجمع الحجج من الكتاب المقدس، والتى تجعل الغزو والاستيطان وتبعاتهما شرعية، فقد كان موقف اليهود أسهل من الأوروبيين فى ذلك. ولكن لم يتم الاستناد الصريح على الكتاب المقدس بشكل بارز لدعم القومية الصهيونية إلا قبيل عام ١٩٦٧ . و أسعى من خلال أبحاثى إلى أن أوضح أن اختلاق الأساطير القومية يسمح باستيعاب طبيعة نصوص الكتاب المقدس بشكل أفضل. وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تقدم نقدًا أخلاقيًّا لتأويلات الكتاب المقدس وعلاقتها بالاستعمار، إلا أنه من الضرورى تحديد السياق الاجتماعى الذى تطورت فيه هذه التأويلات. وعلى غرار الأمثلة السابقة، سيسمح لنا استرجاع تاريخ الصهيونية من نشأتها إلى تطوراتها التاريخية حتى اليوم، بتقديم إيضاحات كثيرة.

المرحلة المبكرة للصهيونية (١٨٩٦-١٩١٧)

على الرغم من أن ثيودور هيرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) لم يكن أول من وضع خطط هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين، كما أنه لم يكن أول من اقترح إنشاء دولة لليهود، إلا

(١) أول من استعمل كلمة الصهيونية بمعناها الحديث كان «ناثان برنباوم» عام ١٨٩٠ (باين ١٩٦١: ٣٣).

أنه قام بشكل منهجى بتصور خطط تسمح بتحقيق هذه الأهداف على أرض الواقع . لذا يتعين أن نأخذ فى الاعتبار حلمه اليوتوپى و الاستراتيجية التى اتبعها لتحقيق هذا الحلم .

اهتم هيرتزل بالمسألة اليهودية منذ ١٨٨١أو ١٨٨٢(هيرتزل ١٩٦٠، ١ : ٤)[١] وأثناء إقامته فى ڤيينا، تصور أن حل هذه المشكلة يكمن فى تنصير اليهود وتحولهم إلى الكاثوليكية كحل للمشكلة اليهودية فى المجتمع الأوروپى (هيرتزل: ١٩٦٠، ١: ٧) . واعترف عام ١٨٩٥أن الجهود المبذولة لمكافحة المعاداة للسامية غير مجدية (هيرتزل ١٩٦٠، ١ : ٦) . وكان أول ما خطه من كتاب «الدولة اليهودية» ما بين يونيه ويوليه ١٨٩٥، وعرض فى السابع عشر من نوڤمبر أفكاره على الدكتور «ماكس نوردو» فى باريس، والذى تحمس للفكرة[٢] . و الجدير بالذكر أنه استغل محاكمة الضابط اليهودى «دريفوس»، وهو فرنسى من منطقة الألزاس وكان يخدم فى هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى (٥يناير ١٨٩٦) حيث اتهم بالخيانة لنقله أسراراً عسكرية من فرنسا إلى ألمانيا. ونجح هيرتزل فى تصوير المأساة اليهودية، حيث اعتبر هذه الحادثة الفردية نهاية الحملة التى قادها لإدماج اليهود فى المجتمع الأوروپى و أكد تمسكه بالصهيونية . وفى ١٧يناير ١٨٩٦، نشرت (Jewish Chronicle) مقالته «حل المشكلة اليهودية» . وعبَّر المقال الافتتاحى عن شكوكه قائلاً «لا نتصور مستقبلاً باهراً لمشروع ينتج منه خيبة الأمل» . وفى فبراير، نشر هيرتزل النص الكامل لبرنامجه الصهيونى .

الرؤية ودعمها

حاجج هيرتزل بأنه لا يمكن حل المشكلة اليهودية بدون«استعادة دولة يهودية»

(١) بدأ «هيرتزل» فى كتابة مذكراته فى عيد الخمسين عام ١٨٩٥، واستمر فى كتابتها حتى وفاته . وتم نشر المجلدات السبعة لرسائله ومذكراته، حيث نشر أول ثلاثة مجلدات «جوهانس واشتن» (١٩٨٣-١٩٨٥)، والمجلدات الأربعة الأخيرة فقد نشرتها «باربارا شافير» (١٩٩٠- ١٩٩٦) . أما الترجمة الإنجليزية الكاملة، فقد نشرها فى خمسة مجلدات «رافائيل پاتاى» . وقد استخرجت الفقرات التى رجعت إليها من نسخة «پاتاى» والتى قارنتها بالنص الأصلى لـ «واشتن» و«شافير» . وعندما أرى ذلك مهمّا، أستعمل النص الأصلى الألمانى لهذين الناشرين، وعندما أرجع للنص الإنجليزى أشير له بالأرقام ١، ٢ الخ وعندما أرجع للنصوص الألمانية أشير بالأرقام I ,II الخ .

(٢) الأفكار التى أذكرها بشأن «هيرتزل» وصفها هو بنفسه بشكل دقيق فى مذكراته فى التاريخ المحدد، هنا على سبيل المثال فى الطبعة الألمانية الكاملة (II : ٢٧٧ - ٢٧٨) .

(١٩٨٨ : ٦٩)[١]، كما أكد على فكرة أن اليهود يشكلون شعبًا واحدًا (٧٦، ٧٩) حيث تحدث عن القومية اليهودية التى تميزهم عن غيرهم(٧٩). ويرى أن اليهود كانوا معرضين للقمع فى كل مكان وفى أى مكان (٧٥-٧٨). وبالنسبة لـ «هيرتزل»، مَثَّل العداء للسامية مشكلة قومية أكثر منه مشكلة اجتماعية ومدنية، أو دينية، ولن يتم حل المشكلة اليهودية إلا إذا تم طرحها سياسيًا على الصعيد العالمى(٧٦).

وقليلاً ما يستند «هيرتزل» فى حديثه على الحافز الدينى، على الرغم من أنه يستعمل عبارة «العام المقبل فى القدس»(٨٢). وتتمثل فحوى خطته فى «الحصول على السيادة على قطعة أرض فى العالم تكفى لإرضاء الاحتياجات الشرعية للأمة اليهودية»(٩٢).واعتمد اليهود على مساندة حكومات جميع الدول التى كان يظهر فيها العداء للسامية حتى يحصلوا على هذه السيادة (٩٣). وقد وجه «هيرتزل» حديثه إلى القوى العظمى ليُعَرِّفَ بحق اليهود فى السيادة على قطعة أرض محايدة. و يرى «هيرتزل» أن اليهود من شأنهم أن يقدموا مزايا كثيرة لأصحاب الأرض الحاليين، كما أن إنشاء دولة يهودية سيكون له عظيم الفائدة على البلدان المجاورة (٩٥). وفى مناقشة الاختيار بين الأرچنتين وفلسطين لإقامة الدولة اليهودية أكد قائلاً: «إن اسم فلسطين يجذب شعبنا بقوة نافذة عجيبة» (٩٦).

وطبقًا لـ «هيرتزل»، ستكون الدولة اليهودية «جزءًا من استحكامات أوروبا فى مواجهة آسيا، ومخفرًا أماميًا للحضارة ضد البربرية» (٩٦). وأضاف «هيرتزل» أنه «سيمكن رؤية المعبد من بعيد لأن إيماننا القديم وحده هو الذى حافظ على وحدتنا» (١٠٢). وكان يطالب بمساعدة الحاخامات فى هذه الحملة لأنه توقع صعوبة إقناع اليهود بالهجرة (١٢٩). وأكد: « إن مجتمعنا العرقى خاص وفريد، لأن ما يجمعنا هو إيمان آبائنا» (١٤٦). ولكن لن تكون الدولة اليهودية دولة ثيوقراطية: «سنحصر دور رجال الدين فى تأدية الطقوس فى المعبد، كما سنحصر دور جيشنا المحترف فى الثكنات»[٢] وختم بهذه العبارات:

(١) النصوص التالية من كتاب «الدولة اليهودية»(نيويورك: دوڤر، ١٩٨٨).

(٢) أعلن «أرون ماركوس» الحسيدى فى ٨ مايو ١٨٩٦، أن ٣ ملايين من اليهود البولنديين الحسيديين سوف يساندون بشكل واضح هذا المشروع. وأجاب «هيرتزل» بأنه يرحب بمساندة اليهود الأرثوذكس [التقليديين] ولكنّه لم يكن بصدد إنشاء دولة ثيوقراطية (II و٣٤٠).

أعتقد أن جيلاً عظيمًا من اليهود سينشأ. وسيصعد من جديد المكابيون. واليهود الذين يسعون إلى إنشاء دولة سوف ينالون هذا المطلب. وسنعيش أخيرًا كرجال أحرار على أرضنا وسنموت بسلام عليها. وسيتم تحرر العالم بفضل حريتنا وسيغتنى بغنانا وتمجده عظمتنا. وكل ما سنقوم به هناك لتحقيق رفاهيتنا سيكون له عظيم الأثر على الإنسانية (١٥٦ - ١٥٧).

وقد لقيت اقتراحات هيرتزل هذه معارضة معتبرة، لاسيما من الحاخام «موريتز جودمان» من ڤيينا، والذى أكد أن اليهود لا يشكلون أمة وأن الصهيونية لا تتوافق مع تعاليم اليهودية [١]. وكانت خطة «هيرتزل» تتمثل فى حشد اليهود والتفاوض مع القوى الاستعمارية. وبالتالى كان يجب البدء فى مفاوضات مع تنشيط الحملة الدعائية على أوسع مجال (١١ مايو ١٨٩٦، هيرتزل ١٩٨٣- ١٩٩٦ : II، ٣٤٠، ٣٤١) وقد استمع لـ «هيرتزل» كل من السلطان والقيصر والبابا والملك «ڤيكتور إمانويل» و«شامبرلين»، وشخصيات قيصرية، والعديد من الشخصيات البارزة الأخرى.

اعترف «هيرتزل» بأن مفهومى «الشعب المختار» و«العودة إلى أرض الوعد» عاملان فعالان لحشد الرأى العام اليهودى، على الرغم من أن كبار الصهاينة كانوا غير متدينين أو كانوا ملحدين أو لا أدريين. وفى السادس من مارس ١٨٩٧، تقرر عقد المؤتمر الصهيونى فى ميونيخ فى شهر أغسطس، إلا أن يهود ميونيخ رفضوا استضافته. أما الحاخامات ـ من كل الاتجاهات ـ فقد شجبوا الصهيونية ووصفوها بأنها متعصبة وضد الكتاب المقدس اليهودى [العهد القديم]، وأكدوا ولاءهم لألمانيا. هذا بالإضافة إلى أن اللجنة التنفيذية لمجلس حاخامات ألمانيا أدانت رسميًا وعلنيًا «جهود الذين يعتبرون أنفسهم صهاينة لإنشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين» لمناقضتها للكتاب المقدس (ڤيتال ١٩٧٥ : ٣٣٦).

وأقام «هيرتزل» أول مؤتمر صهيونى عالمى (٢٩ - ٣١ أغسطس١٨٩٧) فى بازل. وعشية الافتتاح، وعلى الرغم من أنه ليس متدينًا، فقد ذهب إلى المعبد اليهودى

---

(١) القومية اليهودية (ليپزيج وڤيينا ١٨٩٧) ص ٤٢، ذكره (لاكر ١٩٧٢ : ٩٦).

للصلاة، وقرأ القانون اليهودى [الشريعة اليهودية] (ڤيتال ١٩٨٥ : ٣٥٥) وأعلن أن الهدف الأول من المؤتمر هو وضع حجر الأساس للدولة التى ستؤوى الأمة اليهودية وستساهم فى تطور الحضارة.

إنه من مصلحة الأمم المتحضرة والحضارة بصفة عامة، أن يتم إرساء محطة ثقافية جديدة على أقصر طريق يؤدى إلى آسيا. فلسطين هى هذه المحطة ونحن اليهود حملة الثقافة مستعدون للتضحية بممتلكاتنا وحياتنا لضمان إنشاء هذه الدولة... فالصهيونية تسعى إلى ضمان بيت للشعب اليهودى معترف به رسميًا و مضمون شرعيًا فى أرض فلسطين.

وأدى المؤتمر إلى تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية. وفى جلسته الختامية، أقر المؤتمر اقتراحًا مبدئيًا يدعو إلى إنشاء صندوق لتمويل امتلاك أراض فى فلسطين «والتى لا يمكن بعد شراؤها أو نزعها، ولا يمكن بيعها حتى إلى يهود بشكل شخصى، إلا أنه يمكن استئجارها للاستخدام لفترات تدوم ٤٩ عامًا على الأكثر» (فى ليهن١٩٨٨ : ١٨) وتشير التسعة والأربعون عامًا إلى الأمر الإلهى بامتلاك الأرض (اللاويين - الإصحاح ٢٥)[1].

ورأى «هيرتزل» أن مساندة القوى الأوروپية العظمى للصهيونية تخدم مصالحها الإمپريالية للتخلص من اليهود و معاداة السامية، كما تدفع المنظمات اليهودية إلى قمع الحركات الثورية [ضد القوى الاستعمارية]. وبعد المؤتمر الصهيونى الأول، كتب «هيرتزل» فى مذكراته (٣ سبتمبر):

لو طلب إلىّ تلخيص أعمال المؤتمر فإنى أقول، بل أنادى على مسمع من الجميع، إننى قد أسست الدولة اليهودية فى بازل. وإعلانى هذا قد يثير سخرية العالم. وربما يعترف بها العالم بعد خمس سنوات وفى كل الأحوال بعد ٥٠ عامًا على الأكثر (هيرتزل ١٩٦٠ : ٢ : ٥٨١).

ووصل «هيرتزل» وحزبه إلى يافا يوم ٢٦ أكتوبر ١٨٩٨، وزاروا المستوطنين اليهود فى فلسطين. وقد تأثر بشكل سيئ للغاية من حال القدس بسبب [على حد قوله]

(١) أسس المؤتمر الصهيونى الخامس الذى عُقد فى بازل (٢٩ - ٣١ ديسمبر ١٩٠١) الصندوق الوطنى اليهودى. ومنذ تأسيسه، كان يهدف إلى إقامة دولة يهودية.

التراكمات العفنة خلال ٢٠٠٠ عام من مظاهر عدم الإنسانية وعدم التسامح فى الشوارع الصغيرة الكريهة الرائحة بسبب عدم النظافة (٣١ أكتوبر ١٩٨٣- ١٩٩٦ II، ٦٨٠).

وفى ٢ نوفمبر ١٨٩٨ استقبل الإمبراطور الألمانى «ويليام الثانى» فى إقامته بالقرب من القدس «هيرتزل». وعلم «هيرتزل» فى تلك اللحظة أن ألمانيا لا تؤيد أهداف الصهيونية. وفى مايو ١٩٠١، استقبل السلطان «عبد الحميد» «هيرتزل» فى جلسة عامة، و وعد «هيرتزل» السلطان بأن يسدد اليهود ديونه الخارجية ويطوروا تصنيع بلده. وقد وعد السلطان بحماية اليهود إذا لجأوا إلى تركيا كمواطنين. و التقى «هيرتزل» عدة مرات مع السلطان فى فبراير و يوليه ١٩٠٢. ولكن لم يستطع «هيرتزل» أن يجمع مجرد جزء من المبلغ اللازم، وقرر التفاوض مع إنجلترا.

ونظرًا لمصالح إنجلترا فى الدول العربية المجاورة، ولضمان سلامة الطريق البرية التى تؤدى إلى الهند، فقد تستفيد إنجلترا من شراكة أنجلو صهيونية، وذلك بمنح حقوق استعمارية لليهود فى قبرص والعريش و شبه جزيرة سيناء. وقد التقى «هيرتزل» مع «چوزيف شامبرلين» الوزير المكلف بالمستعمرات يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٢، وشرح له أنه بمساندة القضية اليهودية ستضمن الإمبراطورية البريطانية ١٠ ملايين وكيل [أو عميل «agent»، يخدمون عظمتها ونفوذها فى العالم، وسيعطيها ذلك فوائد سياسية واقتصادية (١٩٨٣- ١٩٩٦ : III، ٤٦٩)، إذا التزمت بحماية الدولة اليهودية، ويهود العالم، فى المقابل سيخدم جميع يهود العالم المصالح البريطانية وتصبح الدولة اليهودية عميلتها. وفى اليوم التالى كتب «هيرتزل» أن ذلك كان يومًا عظيمًا فى التاريخ اليهودى.

وفى أغسطس ١٩٠٣، تفاوض «هيرتزل» مع الحكومة القيصرية بشأن تنشيط هجرة اليهود الروس. وحاجج بأن على القوى الأوروپية أن تساند الاستيطان فى فلسطين، ليس فقط بسبب احترام الحقوق التاريخية التى يضمنها الكتاب المقدس، بل وأيضًا بسبب ميل الأوروپيين لإبعاد اليهود. وقد اقترح شامبرلين ـ فى بادئ الأمر ـ إقامة المستوطنة فى أوغندا، إلا أن هذا الاقتراح تم مناقشته بشكل مطول فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقد فى بازل دون التوصل إلى نتيجة (٢٢ - ٢٨ أغسطس

١٩٠٣). وأكد «هيرتزل» و «نوردو» أن أوغندا ما هى إلا مرحلة انتقالية للوصول إلى الهدف النهائى ألا وهو فلسطين. ولكن خوفًا من وقوع انقسام داخل الحركة الصهيونية، رفع «هيرتزل» يده اليمنى وقال « إذا نسيتك يا قدس فلتشل يدى اليمنى» مرتلاً ما جاء فى المزمور ١٣٧ : ٥ (لاكور ١٩٧٢ : ١٢٩). وهكذا استبعد المؤتمر السابع ـ الذى لم يشارك فيه هيرتزل ـ كليًا ونهائيًا فكرة إقامة دولة يهودية فى أوغندا.

وعلى الرغم من تدهور أحواله الصحية، زار «هيرتزل» روما يوم ٢٣ يناير ١٩٠٤ وقابل الملك «ڤيكتور إمانويل الثالث» و«پيوس العاشر». وردًا على طلب بإقامة الدولة اليهودية فى طرابلس، قال الملك: ولكنها أرض شعب آخر (هيرتزل ١٩٨٣ - ١٩٩٦ : II، ٦٥٣). ولم يقبل كل من البابا «پيوس العاشر» ولا وزيره الكاردينال «مرى دل ڤال» تقديم أية مساندة بأى شكل من الأشكال للنوايا الصهيونية (هيرتزل ١٩٦٠ : ٤، ١٦٠٢-١٦٠٣) معارضين ذلك لأسباب دينية (كروتز ١٩٩٠ : ٣٣). وآخر ما دونه «هيرتزل» كان يوم ١٦ مايو ١٩٠٤. ومات فى إدلاش يوم ٣ يوليه. وأثناء مراسم الدفن، شبهه «زانجويل» بـ«موسى» الذى سمح الله له ـ فقط ـ بإلقاء نظرة على أرض الوعد. ولكن مثل «موسى»، كان« هيرتزل» قد وضع يده على رءوس العديد من أمثال «يشوع»، فأعطاهم روحه وحكمته وذلك لاستكمال عمله (زانجويل ١٩٣٧ : ١٣١ - ١٣٢).

نقد «هيرتزل»

أمد «هيرتزل» الحركة الصهيونية بالإلهام، والقيادة، والتنظيم، وأسفر كل ذلك عن إعلان «بن جوريون» قيام دولة إسرائيل فى ١٤ مايو ١٩٤٨. لم تنحصر عبقريته فقط فى تحليله لظروف اليهود، ولا فى وضوح فكرته ونظرته للحل، ولكن فى قدرته على تحويل خطته إلى حقيقة بفضل تنظيم مدهش، وبفضل حسه الدبلوماسى. وكان رجل أفعال بشكل خاص مثلما يقول «مارتن بوبر». حيث كان يتم تشبيهه بمسيح، أو بملك إسرائيل، أو بأنه تحقيق لنبوءات الكتاب المقدس. وتوضح مذكراته ومراسلاته طموحه الكبير للبحث بكل الوسائل والطرق عن الدعم لقضيته. فالقول بأنه قابل القيصر والسلطان والملك والبابا وتعامل معهم كرئيس دولة يعد أمرًا ذا دلالة كبيرة. وسمح موته المبكر بالاحتفال به من قبل جميع المجموعات والحركات الصهيونية.

ولم يُمْلد الحافز الدينى ولا أوامر الكتاب المقدس على «هيرتزل» الرجوع إلى أرض إسرائيل القديمة «أرض الوعد». كان للصهيونية التى يدعو إليها مفهوم مشابه للقومية الألمانية، بالتأكيد على الأمة، فولاء الألمان حيثما عاشوا هو لألمانيا، كذلك اليهود ولاؤهم للأمة اليهودية، التى يتوقف نجاحها على إقامة الدولة اليهودية.

أسهمت عصور النهضة والإصلاح فى أوروبا فى إنشاء مجتمعات دول جديدة تتعارض مع فكرة العصور الوسطى عن الإمبراطورية العالمية. وعلى الرغم من أن المبدأ الأساسى لقيام القوميات [وبالتالى الدول القومية] الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان الطبيعة الخاصة لكل مجتمع، وكذلك الرغبة فى الاستقلال عن السلطة الإمبريالية، إلا أن الصهيونية لم تتبلور فى مثل هذا السياق، و إنما ترجع مطالبة اليهود بإقامة دولة منفصلة ـ مثلما كان الحال بالنسبة لكل الأمم الأخرى ـ إلى تناول خاص.

ولم تشر خطة «هيرتزل» إلى حق السكان الأصليين؛ حيث كانت حججه تستند على فكرة أن فلسطين كانت أرضًا خالية، صحراء قاحلة، تحت التصرف الحر للقوى الخارجية. وعلى الرغم من هذا، كان يعلم ما سيكون ضروريًا لإقامة دولة يهودية على أرض يقطنها بالفعل شعب آخر. ونقرأ فى إشارة له فى مذكراته يوم ١٢ يونيه ١٨٩٥ مايلى:

> **وعندما نحتل الأرض سنجلب الفوائد الفورية للدولة التى تستقبلنا. ويجب أن نصادر الأراضى التى تمنح لنا [من أصحابها] بشكل لطيف. وسنحاول أن نشجع الشعب الفقير [صاحب الأرض] على عبور حدودنا إلى الدول المعابر [الانتقالية] وأن ندبر لهم العمل فى دول أخرى، ونحرمهم من أى عمل لدينا. وسيكون الملاك فى جانبنا. ويجب تحقيق كل من انتزاع الأراضى واستبعاد الأهالى الفقراء بشكل حكيم وحذر (هيرتزل ١٩٦٠، ١ : ٨٧ ـ ٨٨).**

لكن فى بادئ الأمر، كان يظن أنه قبل استبعاد السكان الأصليين يجب على الصهاينة أن يستعملوا اليد العاملة المحلية ـ لاسيما عندما يعانى العمال من الحمى ـ وذلك حتى يتم حماية الصهاينة.

خلفية رؤية «هيرتزل» وخطته

وإذا كان هناك بالفعل رغبة كبيرة فى العودة إلى جبل صهيون فى جميع فترات التاريخ اليهودى، فقد تم التعبير عنها فى دعاء «العام المقبل فى القدس»، فإنه لا يجب الخلط بين الرغبة الدينية فى القدس ومعبدها، مع الرغبة فى إقامة دولة لليهود فى فلسطين. وساندت الحركات القومية اليهودية، داخل السياسات الأوروپية المضطربة من بعد الثورة الفرنسية هذا الهدف الصهيونى، وكانت بمثابة الرد على الأمل فى أن يحل التحرر المدنى المشكلة اليهودية[1]. وعلى الرغم من وجود فروق كثيرة بين الصهيونية، والحركات القومية والإمپريالية الأخرى، إلا أنه يمكن اعتبار الصهيونية نتاجًا لمجموعة هذه الحركات. وساعد العديد من العوامل بعض اليهود على تبرير فكرة إقامة دولة فى فلسطين بعد عدة قرون من الخمول، ونذكر من هذه العوامل: خدعة الذوبان [ذوبان اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها]، صعود معاداة السامية، ظهور النظريات العنصرية فى ألمانيا، ومذابح اليهود فى روسيا فى عامى ١٨٨١ و ١٨٨٢ الخ. ولكن هذه العوامل وحدها لم تكن كافية لتبرير العودة إلى صهيون، لأن اليهود الذين عانوا من الاضطهاد فى أماكن مختلفة لم يهاجروا أبدًا إلى فلسطين، بل توجهوا إلى دول أخرى. والجدير بالذكر أنه لم يتوجه إلى فلسطين إلا ١٪ من إجمالى ٣ ملايين من اليهود الذين هربوا من روسيا مابين ١٨٨٢ و١٩١٤ فرارًا من المذابح ومن سياسة معاداة السامية التى كانت تمارسها الحكومة القيصرية (أقينيرى ١٩٨١ : ٥).

ومن خلال تاريخهم، حافظ اليهود على وحدتهم بشكل مدهش بفضل إخلاصهم القوى لقيمهم الدينية المشتركة، إلا أن المنهج العلمى الذى ظهر على يد «ديكارت» و«لوك» و«نيوتن» فى القرن السابع عشر والذى أدى إلى ظهور عصر التنوير، قد تحدى بشكل جدى الهوية اليهودية. واتسمت المعرفة باستقلال البحث والنقد [عن سلطة الكنيسة والكتاب المقدس]، والتى تقوم على العقل والملاحظة والتجربة، دون أن تتأثر بأى مذهب أو تقليد أو سلطة باستثناء المنطق والفكر المستقل. وكانت الحركة التنويرية تتشكك بشكل عام فى التأكيدات الدينية، بل وغالبًا ما كانت معادية لها.

---

(١) حوالى ٩٠٪ من ٥ ,٢ مليون من اليهود [إجمالي عدد اليهود فى العالم] كانوا يعيشون فى أوروپا فى بداية القرن التاسع عشر. وكان هناك ارتفاعٌ ملحوظٌ فى تعداد الشعب اليهودى فى العالم منذ القرن الخامس عشر وحتى ١٩٣٩.

وكان التمييز العنصرى مشكلة فى مناطق مختلفة؛ وعبرت عن نفسها فى مظاهر القمع المتكررة. ومنذ أن صوتت الجمعية الوطنية الفرنسية على الاعتراف بمواطنة اليهود وإلغاء التمييز (٢٨ سبتمبر ١٧٩١) تحسن وضع اليهود بصورة طفيفة. ومنذ ١٨٦٠، تم القبول ـ بشكل عام ـ فى أوروبا بمساواة اليهود مع بقية المواطنين (هالبيرن ١٩٦٩ : ٤). وبالفعل ومنذ تدمير الهيكل، يتضح أن القرن التاسع عشر كان أفضل فترة عرفها اليهود كأفراد وكجماعات؛ حيث انتقلوا من وضعهم كأقلية مهمشة فى بداية القرن إلى أكثر المستفيدين ـ لمائة سنة ـ من فترة عصور التنوير والتحرر و الثورة الصناعية (أڤنيرى ١٩٨١ – ٥ – ٦).

ولكن بقى خطر يداهم اليهود ألا وهو «ذوبان» اليهود الأوروبيين فى المجتمعات التى يعيشون فيها، ذلك المصطلح المعبأ بالهلع المرضى لدى اليهود من الأجانب، من ناحية، وعقدة الأعلوية من ناحية أخرى. وأدى التنوير والتحرر إلى ظهور مناخ جديد تخلى فيه بعض اليهود عن عدد من ممارساتهم التى كانت تشكل أساس مجتمعهم. وأكد اليهود الغربيون أنهم ليسوا أمة منفصلة [عن الدول التى يعيشون فيها]، بل جسداً دينيّاً كان يرفض العودة إلى صهيون (هالبيرن ١٩٦٩ : ١٠) وقد اشتكى «ڤيلهلم مار» ـ وهو أول من استعمل مصطلح معاداة السامية[(١)] ـ نفوذ اليهود الذى تخلل بقوة الحياة الاقتصادية الأوروبية (لاكير ١٩٧٢ : ٢٨ – ٢٩). بينما شكلت الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر فترة سعادة لليهود فى ألمانيا، إلا أن العداء بدأ يظهر فى السبعينيات، وكان الاتجاه فى روسيا يتمثل فى إذابة اليهود خلال الستينيات والسبعينيات، وكان اليهود فخورين بذلك حتى بداية المذابح فى الثمانينيات، والتى وجهت ضربة قاضية للذوبان التام.

وعلى الرغم من أن «هيرتزل» لم يتأثر بالأيديولوچيات التى سبقته، فإنه من الواضح أن بزوغ الأفكار الصهيونية فى أماكن مختلفة فى القرن التاسع عشر، شجع

(١) تنطبق الصفة السلبية «معاداة السامية» فى اللغة الشعبية وبدون غموض على كل ما يبدو أنه معاد لليهود، انطلاقًا من ممارسات «هتلر» إلى نقد منظمات حقوق الإنسان لممارسات دولة إسرائيل. إلا أن هذه الكلمة غير دقيقة و غير واضحة. وفى القرن الثامن عشر، كان اللغويون يقسمون الشعوب إلى مجموعات لغوية وفقًا للغة التى يتكلمونها، وبسبب التشابه الموجود فى مجموعة لغوية ـ تم جمعها فى فئة اللغات السامية. وعلى هذا الأساس تم تحديد اسم الشعوب مما أدى إلى ظهور الألفاظ السامية واللاسامية. ولكن عبارات مثل كراهية اليهود أو حقد اليهود أكثر ملاءمة، وكذلك يتم التعبير عن كراهية النازى لليهود بالمصطلحين الألمانيين: judenhass أو Judenfeindschaft.

استقبال برنامجه. وأسهم ديوان «بيرون»: «الألحان اليهودية» وقصة «ديزرائيلى»: «تانكريد» وقصة «چورچ إيليوت»: «دانيال ديروندا» (١٨٧٦)[1] فى تطور فكرة عودة اليهود إلى فلسطين. وفى ألمانيا عام ١٨٤٠، أعلنت مقالة مجهولة المؤلف القبول بفكرة إقامة دولة يهودية، ولكن لأسباب عملية رفضت أن تكون إقامتها فى فلسطين. فقد اقترح الكاتب ولاية أركانسو أو ولاية أوريجون فى الولايات المتحدة، كدولة لليهود حيث كان يمكن شراء أرض كبيرة فى مساحة فرنسا بسعر قدره ١٠ ملايين دولار، وسوف يمارس فيها اليهود أقصى طاقاتهم. وفى مقالة أخرى مجهولة تم نشرها فى «أورينت» يوم السابع والعشرين من يونيه ١٨٤٠ اقترح الكاتب أن الحل الأمثل لمشكلة اليهود فى أوروبا، هو العودة على وجه السرعة إلى فلسطين حيث يمكن إقناع الوالى محمد على بحمايتهم.

ونكتشف أن هناك تطورًا فى الأفكار يقترح أن إقامة دولة يهودية هى الحل المنطقى والمعقول للمشكلة. وكان «هنريخ جرايتز» (١٨١٧ ـ ١٨٩١) أنشط داع لفكرة الأمة اليهودية (أڤينيرى ١٩٨١ : ٣٥). وكان يؤكد أن اليهودية تحتاج إلى تعبير وتطبيق على أرض الواقع بشكل واضح، وأن طبيعتها التى يختلط فيها ما هو دينى بما هو سياسى، تحتاج إلى بلورة هذه الفكرة بالحصول على أرض[2]. وإذا كانت الشريعة هى روح اليهودية والشعب اليهودى هو موضوعها التاريخى، فالأرض المقدسة هى أساسها المادى. وتؤدى هذه الحلقة إلى المثلث التالى:

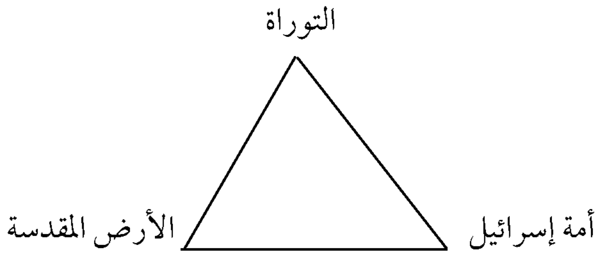

(١) وفى السابع من يونيه ١٨٩٥ قرر «هيرتزل» قراءة شعر إليوت... وقال «زانجويل» إن من اخترع الصهيونية هو [هى] «چورچ إليوت» (١٩٢٠ : ٧٨).

(٢) وما بين ١٨٥٣ و ١٨٧٦، نشر «جرايتز» كتابه ذا الأحد عشر مجلدًا: قصة اليهود منذ الأزمنة القديمة، والذى تم ترجمته إلى لغات أوروبية عديدة.

يرى «أڤينيرى» أن هناك علاقة روحية بين هذه العناصر الثلاثة التى تجمعها علاقة غير مرئية لا يمكن التخلى عنها. وبدون حياة اليهود القومية على الأرض، فلن تكون إلا ظلاّ للحقيقة (أڤينيرى ١٩٨١ : ٢٨ - ٢٩).

ولعب تطور التطرف القومى فى القرن التاسع عشر فى أوروپا دورًا هامًا فى التأثير على القومية اليهودية. وبالتأثر بكتاب روما لـ «جيسپى مازينى» وبصعود القومية الإيطالية، وكتاب «روما والقدس» (١٨٦٢) للكاتب «موسى هيس» (١٨١٢-١٨٧٥)، وهو أول من دعا بشكل منظم إلى إقامة دولة يهودية فى فلسطين، وذلك بتحرير المدينة الأبدية القائمة على جبل المُرِيَّا، على مثال تحرير المدينة الأبدية القائمة على نهر التيبر (أڤينيرى ١٩٨١ : ٣٩ - ٤٢)[1].

ووفقًا لتصور «هيس» فإن اليهود لا يشكلون فقط مجموعة دينية بل يشكلون أمة منفصلة عن بقية العالم، وجنسًا خاصًا يجب أن يحافظ على نفسه من الاندماج داخل المجتمع الأوروپى، ويؤكد وضعه الفريد، بإقامة مركز قومى يهودى فى فلسطين يتم اعتباره نموذجًا من أنواع الكومنولث الاجتماعى الحديث. وكان كل من «پينسكر» و«هيرتزل» يجهلان أفكار «هيس»، وظهرت طموحاتهما فى الميول الاجتماعية القومية اليهودية لاحقًا.

وبينما حافظت المؤسسة الدينية على النظرة التقليدية إلى مفهوم الخلاص وقدوم المسيا (المسيح)، اقترح اثنان من الحاخامات على اليهود أن يلعبوا دورًا أكثر نشاطًا فى تعجيل عملية الخلاص. وفى كتابه «Minhat Yahuda» (١٨٤٥) حدد الحاخام «يهودا ألكالاى» من البوسنة (١٧٨٨ - ١٨٧٨) المكان الجغرافى لقدوم المسيا المخلص. وبالمحافظة على المذهب التقليدى -والذى وفقًا له فإن المسيا هو الذى سيخلص البشر- أكد أن عودة اليهود إلى صهيون يجب أن تسبق مجىء المخلص. وكان «ألكالى» يأتى بحججه من تفاسير التوراة والتلمود ليضع حدًا للانتقادات التى تتهمه بـ «تعجيل قدوم نهاية العالم». وكان يقترح إحياء اللغة العبرية و إنشاء صندوق دائم و إقامة جمعية تمثل اليهود (أڤينيرى ١٩٨١ : ٥٠ - ٥١). وفى ١٨٥٧ دعا إلى إقامة الدولة اليهودية، وربما كان أول من دعا إلى ذلك، وفى أيامه الأخيرة، هاجر إلى القدس.

(١) أكد «هيس» فى بداية فكره، أنه لن يكون لليهود مستقبل؛ إلا إذا تخلوا عن هويتهم وأصبحوا مواطنين عالميين، أما أورشليم الجديدة فى نظره، فهى التى تستند على القومية أكثر منها على الدين، ومن المفروض إقامتها فى قلب أوروپا وليس فى فلسطين.

ومنذ ١٨٣٢ أكد الحاخام «زوى هيرش كاليشير» من پوسين (١٧٩٥ - ١٨٧٤) أن استعادة صهيون لن تتحقق إلا بفضل تحرك الشعب اليهودى، وأن معجزة المسيا ستأتى بعد ذلك. وفى عام ١٨٦٢، وهو العام الذى نشر فيه «هيس» كتابه، نشر «كاليشير» كتابه «السعى وراء صهيون» والذى كان به العديد من أوجه التشابه مع آراء «ألكالاى»، وكانت تقترب بشكل كبير من نتائج «هيس» مع اقتراح خطة مختلفة. وكانت نقطة انطلاقة الكتاب المقدس و المشناة والتلمود:

لن يكون خلاص إسرائيل والذى نتطلع إليه، معجزة مفاجئة. إن الله هو الجبار المتعالى، فليكن اسمه مباركًا، لن ينزل فجأة من السماء ويطلب من شعبه البدء فى المسيرة، ولن يرسل أيضًا المسيا فى غمضة عين لينفخ فى البوق للمشتتين من بنى إسرائيل ويجمعهم فى القدس. ستأتى استعادة إسرائيل تدريجيًا وسيشرق نور الخلاص أيضًا تدريجيًا (كاليشير فى أڤينيرى ١٩٨١ : ٥٣).

ويرى «كاليشير» أن استقرار اليهود على أرض إسرائيل قد يُعجل يوم الفداء. ويجب أن يأخذ ذلك شكل جماعات زراعية تتمتع باعتماد ذاتى حسب الأوامر الدينية. وعندما يتم تحرير الأرض بهذه الطريقة الدنيوية، سيشرق نور الخلاص السماوى تدريجيًا (فى أڤينيرى ١٩٨١ : ٥٤).

وتحدث كل من «كاليشير» و«ألكالاى» عن إمكانية ضم الفكر القومى والتحرر الحديث مع تقاليد اليهودية التى يطبقها الحاخامات. وأراد كل منهما أن يؤثر على مذهب المسيانية السلبية وذلك لتحقيق هوية ثقافية وقومية داخل الثقافة المحيطة. وكانت مهمة اليهود هى القيام بالخطوات الأولى والتسريع بقدوم مسيا الفداء[1]. وبرغم أن كلاّ من «ألكالاى» و «كاليشير» كان منعزلاً عن بقية الحاخامات فى القرن التاسع عشر، فقد أظهرا جيدًا كيفية إعادة تفسير الهوية اليهودية وأهدافها وآمالها فى العالم الذى كان يتغير بشكل جذرى. كان تركيزهما على مفهوم الهوية الجماعية لليهود على المستوى الثقافى والدينى يتفق مع طموحات الصهيونية القادمة، والتى كانت ترجع جذورها الثقافية بشكل كبير إلى التقاليد العلمانية والقومية للقرن التاسع عشر فى أوروبا أكثر منها إلى التقاليد الدينية.

(١) ظهر نزاع مماثل فى اللاهوت المسيحى بشأن دور المسيحيين الذين ينتظرون قدوم المسيح. انظر مثلاً، الآراء التى اقترحها «ألبرشت ريتشل» (١٨٢٢ - ١٨٨٩) وزوج ابنته «يوهانس ڤايس» (١٨٤٣ - ١٩١٤).

واهتزت ثقة «ليو پينسكر» (١٨٢١ - ١٨٩١) وهو مناصر لفكرة ذوبان اليهود، في مستقبل اليهود في روسيا بسبب أحداث الشغب التي وقعت في أوديسا عام ١٨٧١، كما ضاعت أحلامه مع المذابح الروسية لليهود عام ١٨٨١. ونشر مقالة لم يشر فيها إلى اسمه ـ وكان يجهل أعمال هيس ـ أكد فيها أن معاداة السامية هي وسواس نفسي موروث لا يمكن علاجه (١٨٨٢). وليس لليهود أي أرض تعتبر وطنهم، فهم غرباء بامتياز في هذا العالم. والعديد منهم لم يكن يأمل في قيام وطن قومي مستقل، يشبهون في ذلك المريض الذي فقد شهيته تمامًا.

وتعين على اليهود الروس أن يهاجروا ليفروا من وضعهم كطفيليات، و كان عليهم أن يستقروا في وطن خاص بهم. وفي هذا الصدد نظمت الجمعيات اليهودية مؤتمرًا قوميًّا لشراء أراض حتى يتسنى لملايين اليهود الإقامة عليها، وذلك بدعم من الدول العظمى التي كانت ستضمن لهم الاستقرار. وبما أن الأرض المقدسة كانت صعبة المنال، فيمكن الاستقرار في أية أرض مثل أمريكا الشمالية أو تركيا.

وناقش العديد من اليهود علنًا إمكانية الاستقرار في فلسطين وإحياء اللغة العبرية. وفي ١٨٧٧، اقترح الشاعر «يهودا ليب جوردون» تحت اسم مستعار إقامة دولة يهودية في فلسطين تحت السيادة البريطانية. أما «أليعازر پيرلمان» (بن يهودا)، فقد كان يأمل في إحياء اللغة العبرية، ولا يمكن لذلك أن يكون إلا في فلسطين. وأعلن «موشي ليب ليلين بلوم» (١٨٣٤ - ١٩١٠) ـ الذي اعتبر أن اليهود سيكونون دائمًا أغرابًا ـ «نحن نحتاج لأرض لنا، نحتاج لفلسطين». ومنذ ١٨٨١، نادى وطالب بشراء أراضٍ في فلسطين.

وخلال عامي ١٨٧٨ - ١٨٧٩، حاولت مجموعة من اليهود أن تقيم مستوطنة زراعية اسمها «پيتا تيكڤا» على مساحة تبلغ ٣٠٠٠ دونوم (الدونوم ألف متر مربع) وذلك في شمال شرق يافا. وقد فشلت هذه المحاولة إلا أنها أعطت أفكارًا ليهود روسيا والذين تبين أنهم ليسوا أفضل مهارة في الزراعة (ليهن ١٩٨٨ : ٩). وبعد مذابح اليهود في روسيا عام ١٨٨١، ارتفعت معدلات هجرة يهود روسيا ورومانيا، حيث استقرت ١٤ عائلة على مساحة تقدر بـ ٣٢٠٠ دونوم في ريشون تسيون جنوب شرق يافا في أغسطس ١٨٨٢. وفي العام ذاته، أقام ٢٠٠ مهاجر من رومانيا مستوطنة «زخرون

يعكوف» بالقرب من الساحل فى جنوب حيفا؛ كما أقامت ٥٠ عائلة رومانية مستوطنة «روش پيناه» شرق صفد، ولحق بهم بعد ذلك مهاجرون آخرون، و فى نهاية ١٨٨٤ أصبح هناك ٨ قرى يهودية جديدة تضم ٢٤١٥ نسمة عام ١٨٩٠. وبالنسبة للفترة ما بين ١٨٨٢ إلى ١٩٠٣، كانت نسبة الهجرة إلى فلسطين ٣٪ من إجمالى هجرة يهود أوروپا (ڤيتال ١٩٧٥ : ٩٣، ٩٩-١٠٠).

وقد توصل فرع من جماعة «أحباء صهيون» فى روسيا ويطلق عليه «بيلويم» (انظر الحروف الأولى من كلمات إشعياء ٢ : ٥) إلى أن الحل الوحيد لتفادى التمييز ضد اليهود فى روسيا، يتمثل فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين. وقد هاجر ١٤ منهم فقط فى يوليه ١٨٨٢، ولم يتعد عددهم ٢٠ حتى نهاية عام ١٨٨٤، إلا أنه كان لهم شأن يفوق بكثير عددهم الصغير. وشمل مشروعهم إقامة مستوطنات يهودية مستقلة تتكلم العبرية ولا تستعمل إلا اليد العاملة اليهودية.

من الأسهل وضع قائمة بأسماء أبطال معاداة السامية فى القرن التاسع عشر، عن وضع قائمة بأسماء أبطال الصهيونية فى الفترة ذاتها، وبدون توضيح علاقة السبب ـ النتيجة بين عناصر القائمتين، فلن يستطيع المرء رؤية حجة مبكرة للتطور الضرورى لشكل خاص للمعيشة اليهودية. وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن الأمر الذى كان يميز «هيرتزل» عمن سبقوه هو قدرته على التخطيط لرؤيته المثالية وعزمه الملحوظ على تحقيقها.

الصهيونية والإمبريالية الأوروپية

استوعب الصهاينة الأوائل أنه يتعين عليهم الحصول على دعم دولة أوروپية عظمى واحدة على الأقل ترى إقامة دولة يهودية فى فلسطين بشكل إيجابى. وتميزت فترة الحكم العثمانى بمناقشات حادة بشأن السياسة الدولية المتعلقة بالقدس والأراضى المقدسة (أوماهونى ١٩٩٤ : ١٣). وعينت إنجلترا قنصلاً فى القدس عام ١٨٣٨، أما بالنسبة للپروتستانت (الأنچليكان)، فقد أقاموا أسقفية لهم فى القدس عام ١٨٤١ (العسال ١٩٩٤ : ١٣١- ١٣٢). وزاد اهتمام إنجلترا بفلسطين بحصولها على أراضٍ

فى الهند مما استلزم تأمين طريق برى آمن وسريع. هذا بالإضافة إلى ضمان استمرار التجارة مع الخليج، وكذلك لإلزام والى مصر محمد على[1] حدود مصر. وخلال النصف الثانى من القرن، أثبت توسع المؤسسات المختلفة فى الأرض المقدسة، عودة الاهتمام الدولى.

احتلت إنجلترا مصر عام ١٨٨٢، و خلال السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى اتجه اهتمام إنجلترا إلى العراق. وفى الوقت ذاته ألقت فرنسا بثقلها فى سوريا للتعجيل بتفكيك الإمبراطورية العثمانية. وكان يتم كل هذا فى سياق استعمارى أكبر ظهرت من خلاله الصهيونية، فرضت فيه القوى الأوروبية العظمى تفوقها على الأمم الأخرى وحقها فى استغلال الشعوب الأخرى. ويقول «حاييم وايزمان» قائد الصهيونية وأول رئيس لإسرائيل:

> **يمكن أن نؤكد بشكل منطقى أنه إذا دخلت فلسطين تحت سيطرة إنجلترا، وإذا شجع الإنجليز استقرار اليهود تحت سلطتهم، نستطيع خلال عشرين أو ثلاثين سنة جمع مليون يهودى على هذه الأرض من شأنهم أن يطوروا هذه الأرض بشكل أكبر، ويقدموا لها الحضارة، ويشكلوا حرسًا فعالاً لقناة السويس(رسالة إلى المانشستر جارديان، نوڤمبر ١٩١٤ فى وايزمان ١٩٤٩ : ١٤٩).**

وكان وايزمان يعلم جيداً الفائدة التى كانت ستعود على إنجلترا من دعمها للصهيونية. وكان يعتقد أنه من البديهى أن تحتاج إنجلترا لفلسطين لحماية المدخل إلى مصر، وأنه إذا تم فتح فلسطين للمستوطنات اليهودية «سيربح الإنجليز حاجزاً فعالاً وسيكون لدينا وطن» (رسالة إلى زانجويل يوم ١٠ أكتوبر ١٩١٤ فى شتاين ١٩٦١ : ١٤- ١٥).

الحرب العالمية الأولى

كان لدخول الإمبراطورية العثمانية الحرب فى أكتوبر ١٩١٤ عواقب وخيمة أثرت

(١) «رجوع الشعب اليهودى تحت سلطة السلطان وحمايته، وبناءً على دعوته، كانت بمثابة ضمان ضد أى مشروع سيئ النية لمحمد على أو لخلفائه فى المستقبل» (من ڤايكونت پالمرستون، إلى ڤايكونت پونسونبى، ٢ أغسطس ١٨٤٠، وزارة الخارجية ٧٩ / ٣٩٠ (١٣٤) مكتب السجلات العام).

على تطورات الشرق الأوسط . وعندما أصبحت تركيا عدواً لإنجلترا ، بحثت الحكومة البريطانية ـ التى كانت تخشى تصاعد معارضة إسلامية عدائية يقودها الخليفة العثمانى ـ عن مركز قوة إسلامى آخر مستقل نوعًا ما عن إسطنبول ؛ ويُفضل أن يتبع النفوذ البريطانى ، حيث توجهت لشريف مكة «الحسين بن على» ليرعى مصالحها . ووافق الشريف «ابن على» على هذا الأمر ، ولكن بشرط أنه بمجرد أن تخسر تركيا الحرب ، يتعين على الإنجليز أن يساندوا الاستقلال العربى فى كل شبه الجزيرة العربية (باستثناء عدن) وفى سوريا ولبنان [الشام] وفلسطين والأردن والعراق (إنجرامس ١٩٧٢ : ١-٢) ووافق ـ مع تحفظات هامة ـ سير «هنرى مكماهون» المندوب السامى البريطانى فى مصر يوم ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ على «الاعتراف بالعرب ودعم استقلالهم داخل الأراضى التى عرضها شريف مكة ، من قليقية بالشمال إلى المحيط الهندى فى الجنوب ، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى إيران» (رسالة إلى شريف مكة فى ياپ ١٩٨٧ : ٢٧٩) .

لكن حصلت فرنسا ، بموجب معاهدة «سايكس ـ پيكو» بين فرنسا و إنجلترا (٣ يناير ١٩١٦ ، على الضوء الأخضر لاحتلال قليقية وسوريا و لبنان ، أما إنجلترا فحصلت على البصرة وبغداد والمنطقة الجنوبية من الشرق الأوسط . كما حصلت أيضًا على حيفا و عكا ، أما باقى أراضى فلسطين فأصبحت تقع تحت حكم دولى غير محدد . ومن بين الفروق التى تم ملاحظتها بين بنود اتفاق «سايكس ـ پيكو» وبين رسالة «مكماهون» إلى «الحسين بن على» ، نلاحظ وضع العراق و درجة الاستقلالية الممنوحة للدول العربية ، ووضع وحيفا ووضع فلسطين . وعدم الإشارة لفلسطين فى رسالة «مكماهون» يقترح أنها قد تكون جزءًا من الدول العربية ، بينما تنص معاهدة «سايكس ـ پيكو» على تدويلها .

ومهما كانت نوايا بريطانيا (استبعاد فلسطين من المنطقة العربية أم لا) ، فإن رسالة «مكماهون» كانت رسالة نوايا أكثر منها اتفاقية رسمية . وبشكل أكثر وضوحًا ، لا يتم احترام الوعود والتصريحات التى تمت تحت ضغوط الحرب ؛ إلا إذا كانت تخدم المصالح بعد نهاية الحرب . وفى الوقت ذاته ، أمر رئيس الوزراء الجديد «لويد چورچ» بالتقدم إلى فلسطين ، واستولت القوات البريطانية بأمر من الچنرال «اللنبى» على

القدس يوم ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، كما استولت على حلب فى سپتمبر ١٩١٨ . وعقب بداية انحسار القوات العثمانية فى ١٩١٧ ، وضعف المجهود الروسى ، أصبحت إنجلترا القوة المسيطرة على المنطقة .

ومن جهتهم ، لم يسجل الصهاينة إلا تطوراً طفيفًا فى بحثهم عن مساندة دولية لمشروعهم بشأن إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وفى جهودهم المتمثلة فى استقرار عدد كبير من اليهود هناك قبل بداية الحرب . وتقول الإحصائيات إن عدد اليهود الذين استقروا فى فلسطين قبل بداية الحرب كان يتراوح ما بين ٣٨٠٠٠ و ٨٥٠٠٠ يهودى ، أى ما يعادل من ٥٪ إلى ١٠٪ من إجمالى السكان[1] . ولم يُعتبر إلا نصفهم كصهاينة سياسيين . وبما أن معاهدة «سايكس ـ پيكو» لم تنص على أن لفرنسا مصالح فى فلسطين ، رأت إنجلترا أن هذه المنطقة حيوية لمصالحها الاستراتيچية وحاجز لحماية مصر ، وتحمى قناة السويس التى تؤدى إلى الهند ، وكذلك رأت أنها عامل يربط بين مصالحها فى المنطقة و آمالها فى العراق . ومع نهاية الحرب ، أصبح تداخل مصالح الإنجليز والصهاينة حقيقة ، ففلسطين اليهودية سوف تخدم كحامية محلية تدافع عن المصالح البريطانية فى قناة السويس ، وكذلك كجزيرة سياسية صغيرة تُكنُ الولاء لبريطانيا وسط دول عربية مستقلة حديثًا . و كان من البديهى أن لا يقبل عرب فلسطين الحلم الصهيونى ، وبذلك أصبحت المساندة الإنجليزية ضرورية لتحقيق هذا الحلم .

(١) لم تكن هناك إحصائية دقيقة عن عدد اليهود الذين استقروا فى فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى . ووفقًا لتحليل «جوستين ماكارثى» للوضع الديموجرافى ، بلغ عدد سكان فلسطين ٤٥٠,٠٠٠ نسمة عام ١٨٨٠ منهم ١٥,٠٠٠ (أقل من ٥٪ من اليهود) وبعد ١٩١٤ صار هناك ٧١٠,٠٠٠ نسمة منهم ٣٨,٠٠٠ يهودى (أقل من ٦٪) . ووفقًا لمصادر صهيونية ، كان عدد اليهود يقدر بما بين ٨٠,٠٠٠ و ٨٥,٠٠٠ يهودى ، إلا أنه يعتقد أن ٥٠٪ من المهاجرين اليهود ، غادروا فلسطين ثانية بينما احتفظ البعض الآخر بجنسيته الأصلية بدلاً من أن يصير مواطنًا عثمانيّا (انظر خاليدى ١٩٨٨ : ٢١٣- ٢٣١) . ووفقًا لـ«إنجرامس» ، وصل عدد المسلمين عام ١٩١٤ إلى ٥٠٠,٠٠٠ مسلم وعدد اليهود ٦٠,٠٠٠ يهودى ، ومثلهم من المسيحيين (١٩٧٢ : ١) . و قد اشترى الصندوق الوطنى اليهودى الذى تم تأسيسه فى ١٩٠٧ - وكانت تتمثل مهمته فى الحصول على أرض لمستوطنات اليهود فقط ـ الأراضى العربية الأولى عام ١٩١٠ من ملاك محليين ، وحصل الصندوق على أراض تقدر بـ[١٦٣٦٦ "دونوم] فى ١٩١٩(لين ١٩٨٨ : ٣٠ - ٣٩) . و أصر «أرثر روپين» (١٨٧٦ - ١٩٧٤) وهو مدير الصندوق فى فلسطين ، على الفصل الاقتصادى [بين اليهود والآخرين] وفقًا للمبدأ «ساعد نفسك بنفسك» .

المرحلة الثانية من الصهيونية (١٩١٧ - ١٩٤٨)

تعارضت مبادرات إنجلترا للوفاء بضمانات استقلال الدول العربية بعد الحرب، مع بنود معاهدة «سايكس - پيكو»؛ حيث وقعت إنجلترا فى مأزق مأساوى تمثل فى مساندتها للقضية الصهيونية - و فى الوقت ذاته - وعودها بضمان حقوق السكان الأصليين الفلسطينيين. ولن أتعرض إلا للتطورات الأكثر أهمية بشأن الصهيونية خلال الثلاثين سنة التى تفصل نهاية الحرب العالمية الأولى عن إعلان قيام دولة إسرائيل. وفى هذا الصدد، يتعين دراسة وعد «بلفور» وتصاعده إلى برنامج ساندته عصبة الأمم، وكذلك خطة التقسيم التى أقرتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧.

وعد «بلفور»

تم انتخاب «حاييم وايزمان» (١٨٧٤ - ١٩٥٢) رئيسًا للاتحاد الصهيونى الإنجليزى فى ١١ فبراير ١٩١٧. وسرعان ما أثر على سياسة الحكومة [البريطانية] بوجهة نظر تدعو لإصدار بيان يساند المشروع الصهيونى. و كان «اللورد إدوين مونتاجيو» العضو اليهودى الوحيد فى الحكومة، الذى كان يعتبر الصهيونية عقيدة سياسية ضارة، ولا يمكن أن يقبلها أى مواطن مخلص فى المملكة المتحدة (مايهيو ١٩٧٥ : ٥٠، فى آدمز ومايهيو ١٩٧٥)، قد حاجج ضد هذا الإعلان؛ حيث أكد أن مشروع إقامة دولة يهودية سيكون على حساب السكان الأصليين الذين سيتم طردهم (محضر اجتماع مكتب الحرب يوم ٤ أكتوبر ١٩١٧، فى إنجرامس ١٩٧٢ : ١١). وأثناء الاجتماع، تعجب اللورد «كيرزون» من الطريقة المقترحة للتخلص من أغلبية السكان المسلمين واستبدال اليهود بهم. واقترح أن يتم ضمان حقوق متساوية لليهود المستقرين بالفعل فى فلسطين بدلاً من تنظيم هجرة على مستوى واسع يمكن اعتبارها «مثالية على مستوى المشاعر لكن لا يمكن تحقيقها» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٢). وقرر مجلس الحرب (وزراء حكومة الحرب) أن ينسق بين آراء اليهود الصهاينة وغير الصهاينة، و أن يقدم بصورة سرية مشروع إعلان للرئيس «ويلسون» وقادة الحركات الصهيونية، وكذلك أعضاء يمثلون المجتمع اليهودى البريطانى الذين يعارضون الصهيونية (پرو كاب ٢٣ - ٢٤ ذكر فى

إنجرامس ١٩٧٢ : ١٣). وكان من الواضح أنه ليس من الضرورى الاكتراث بالرأى العربى بشأن هذا المشروع. ونص مشروع اللورد «ميلنر» على:

تنظر حكومة جلالته بعين التفضيل إلى إقامة وطن قومى للعرق اليهودى على أرض فلسطين، وستبذل أفضل ما تستطيع لتسهيل تحقيق هذا المشروع؛ ومن المفهوم الواضح أنه لن يتم ما قد يسبب المساس بالحقوق المدنية و الدينية للمجتمعات غير اليهودية فى فلسطين، أو بالحقوق والحالة السياسية لليهود الذين يعيشون فى دول أخرى، والذين هم راضون بشكل تام عن جنسيتهم ومواطنتهم الحالية (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٢ - ١٣).

وأعرب كبير الحاخامات «هيرتز» عن رضائه التام عندما علم أن حكومة جلالة الملك تقدم دعمها القوى لتأسيس دولة للعرق اليهودى فى فلسطين. وقد رحب بفكرة المحافظة على الحقوق المدنية والدينية للطوائف الأخرى فى فلسطين، والتى لم تكن وفقًا له إلا «تطبيقًا لقانون موسى: إذا أقام فى أرضكم غريب فلا تظلموه، وليكن لكم الغريب المقيم عندكم كالمواطن. تحبه كما تحب نفسك، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر» (اللاويين، الإصحاح ١٩ : ٣٣ - ٣٤، إنجرامس ١٩٧٢ : ١٣). أما لورد «روتشيلد» فقد اعتبر أن هذا الشرط هو طعن فى الصهيونية؛ لأنه يفترض مسبقًا احتمال وجود خطر يهدد غير الصهاينة. لن يكون هناك أية عراقيل ضد حقوق السكان الآخرين فى الوطن (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٣). ودعا وايزمان إلى« إحداث تغييرين أو ثلاثة على الخطاب السابق» واقترح القيام بثلاثة تغييرات: استبدال كلمة «إعادة تأسيس» بكلمة « إقامة» بشكل يوضح «العلاقة التاريخية مع التراث القديم» بالإضافة إلى استعمال لفظة «الشعب اليهودى» بدلاً من «العرق اليهودى» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٤). وأكد «ناهوم سوكولوف» للحكومة أن «الضمانات التى تم الإشارة إليها. . . اعتبرها الصهاينة خارج السياق» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٥).

وعبرت شخصيات أخرى يهودية بارزة عن رفضها للبرنامج الصهيونى؛ حيث أكد السير «فيليپ ماجنوس»: «أن العلاقات العميقة التى تجمع إسرائيل ليست علاقة عرق بشرى واحد ولكن بسبب الديانة الواحدة. . . . ليس لدينا طموحات قومية أخرى ماعدا تلك التى تربطنا بالبلد الذى نولد فيه». وكان يرى أن فكرة قيام دولة قومية

لـ «العرق اليهودى» فكرة غير مرغوب فيها وغير مناسبة (إنجرامس (١٩٧٢ : ١٥). أما رئيس الجمعية الأنجلو يهودية «السير مونتفيور »فقد قال: « إن تحرر الجنس اليهودى فى بلدان العالم المختلفة كان أهم ألف مرة من فكرة إنشاء وطن» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٥ - ١٦). أما «إل. إل. كوهين» رئيس مجلس الحرس اليهودى، فقد أعلن رفضه لفكرة أن اليهود يشكلون أمة واحدة؛ بالتالى كان يرفض فكرة أنهم يشكلون كيانًا منفصلاً ويتمتعون بمصالح مختلفة عن المجتمعات التى كانوا يعيشون فيها (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٦).

وأكد وزير الخارجية «آرثر چيمس بلفور» لحكومة الحرب يوم ٣١ أكتوبر بأن إصدار بيان فى صالح الصهيونية، ينشط الدعاية المفيدة فى روسيا وأمريكا، هو أمر مطلوب على وجه السرعة؛ حيث ستقوم دولة يهودية مستقلة ـ فقط بعد إعلان حماية بريطانيا أو أمريكا لها، أو قوة [كبرى] أخرى ـ كتطور تدريجى متناسق مع القوانين المعتادة للتطورات(*) السياسية» (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٧). خول مجلس الحرب «بلفور» اتخاذ الوسيلة الملائمة لإصدار الإعلان، وهو ما قام به فى خطاب إلى اللورد «روتشيلد». ويطلق على هذا الإعلان اسم «وعد بلفور» الذى أعطى الدعم الإمپريالى لإنشاء دولة يهودية:

وزارة الخارجية

٢ نوڤمبر ١٩١٧

عزيزى اللورد روتشيلد،

إنه لمن بالغ سرورى أن أنقل إليكم، باسم حكومة جلالة الملك، «الإعلان» التالى عن التعاطف مع طموحات الصهيونية اليهودية التى تم تقديمها إلى المجلس [مجلس وزراء الحرب]، ومن ثم قبولها:

تنظر حكومة جلالته بعين التفضيل إلى إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين. وستبذل أفضل ما تستطيع لتسهيل تحقيق هذا الهدف. ومن

(*) جاء فى النص: «ordinary laws of political evolution» وفى ذلك إشارة للداروينية السياسية ـ المترجمة.

المفهوم بوضوح أنه لن يتم ما قد يسبب المساس بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية فى فلسطين، أو بالحقوق والحالة السياسية لليهود الذين يعيشون فى دول أخرى.

وسأكون ممتنًا إذا أبلغتم هذا الإعلان للاتحاد الصهيونى.

المخلص لكم

آرثر چيمس بلفور

ولم يشر الإعلان نهائيّا إلى اسم عرب فلسطين ولا إلى الحقوق السياسية لهم. واعترف «بلفور» أن أول من كتب هذا الإعلان فى صياغته الأولى ـ وبطلب منه ـ كان «روتشيلد» و «ووايزمان» (إنجرامس ١٩٧٢ : ٩).

ووفقًا لدوق «ديڤونشاير» الذى جاء بعد «تشرشل» فى منصب وزير الدولة للمستعمرات، فإن وعد « بلفور» كان إجراء حرب . . . تم اتخاذه لتوفير مزايا ملموسة تسهم فى تحقيق النصر النهائى للحلفاء مثل: كسب مساندة اليهود للحلفاء، والتعجيل بدخول أمريكا للحرب (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٧٣). واعتبر العرب هذا الإعلان بمثابة خيانة؛ إلا أنه تم تجاهل اعتراضهم لهذا الظلم الجائر الذى كان يتمثل فى توطين شعب غريب على أرض عربية (مايهيو ١٩٧٥ : ٤٠ -٤١ فى أدامز ومايهيو ١٩٧٥). كانت مساندة إقامة وطن يهودى [دولة] بدون موافقة السكان الأصليين [للأرض] مغامرة متهورة: «فى هذه الوثيقة [وعد بلفور] وعد شعبٌ، شعبًا ثانيًا، بإعطائه أرض شعب ثالث (كويستلر ١٩٤٩ : ٤). وكانت جرأة المشروع فادحة لدرجة أنه فى ١٩١٩ كان عدد اليهود فى فلسطين يقدر بـ ٩,٧٪ من السكان، يمتلكون ٢,٠٤٪ فقط من الأراضى (خاليدى ١٩٩٢ : ٢١).

عكست رسالة بعث بها «وايزمان» إلى «بلفور» فى ٣٠ مايو ١٩١٨، قيمًا عنصرية وإمبريالية للتأثير عليه. كتب عن طبيعة العربى التى تتسم بالخيانة والابتزاز، وعقله الملىء بالتفاهات والحيل، مقارنة بالعقل الإنجليزى المتنور الأمين والنظيف والعادل. هذا بالإضافة إلى أنه إذا كان الفلاح [العربى]، متأخرًا بأربعة قرون، فإن الأفندى [العربى] غير أمين، وغير متعلم، وطماع، وغير وطنى، وغير كفء (وايزمان فى PO FO. 37/3395، فى إنجرامس ١٩٧٢ : ٣١ - ٣٢). ولم يكن «بلفور» ولا القوى العظمى يهتمون من الأصل بالسكان الأصليين.

فى فلسطين، ليس من نوايانا البحث عن آمال السكان الحاليين لهذا البلد . . . حيث التزمت القوى الأربع العظمى أمام الصهيونية. وتضرب الصهيونية سواء كانت على صواب أم لا، صالحة أم سيئة ـ بجذور تاريخها الطويل فى التقاليد، وفى متطلبات الحاضر وفى آمال المستقبل، وبأهمية أعمق من رغبات ٧٠٠,٠٠٠ عربى يقطنون هذا البلد فى الوقت الحالى والأضرار التى قد تلحق بهم. ومن وجهة نظرى، هذا الأمر عادل. . . لا أظن أن الصهيونية ستقضى على العرب. ومهما كان قدر المراعاة التى تكنها القوى العظمى لآراء الذين يعيشون هناك، فالقوى العظمى فى اختيارها لقرارها، ليس لديها النية لمشاورتهم. وباختصار فيما يخص فلسطين، لم تلتزم القوى العظمى بحقيقة تعترف بأنها غير صحيحة، ولا بالإعلان عن سياسة ـ على الأقل فى الخطاب ـ لم تنو دائمًا انتهاكها (مذكرة بلفور إلى اللورد كيرزون ١١ أغسطس ١٩١٩ ، فى إنجرامس١٩٧٢ : ٧٣).

وقد أنشأت وزارة الخارجية هيئة خاصة تخضع لإدارة «هيامسون» للبدء فى الدعاية اليهودية. وتم إرسال منشورات إلى جميع المجتمعات اليهودية فى العالم. وتم إسقاط المنشورات فى الأراضى الألمانية والنمساوية، كما تم توزيع منشورات باللغة اليديشية للجنود اليهود فى جيوش أوروبا الوسطى بمناسبة سقوط القدس؛ جاء فيها: «جاءت ساعة تحرير اليهود. . . ويجب أن تصبح فلسطين موطن الشعب اليهودى ثانيًا. . أعطى الحلفاء أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل» والهدف كان تشجيعهم على إيقاف قتالهم ضد الحلفاء (إنجرامس ١٩٧٢ : ١٩).

وبناءً على اقتراح لجنة الشرق الأوسط، أرسل مجلس الحرب لجنة صهيونية إلى فلسطين لتعزيز نوايا حكومة جلالته. وكان يقودها «وايزمان» الذى أكد للعرب أنه:

. . . كان يهدف إلى رؤية الفلسطينيين تقودهم حكومة مستقرة على غرار حكومة بريطانيا العظمى، وأن الحكومة اليهودية ستكون حتمية، وأن رغبته ـ ببساطة ـ هى إقامة وطن لليهود على الأرض المقدسة ليمارسوا حياتهم كأمة، وأنهم سيتشاركون نفس الحقوق مع السكان الآخرين (مذكرة الماچور كورنواليس، ٢٠ أبريل فى إنجرامس ١٩٧٢ : ٢٩).

وأكد لعرب ويهود يافا قائلاً: «ليس هدفنا هو السيطرة على السلطة العليا والإدارة فى فلسطين ولا أن نجرد السكان من ممتلكاتهم»(*)(إنجرامس ١٩٧٢ : ٣٠).

هذا وعرض «وايزمان» براعته الديپلوماسية على وزارة الخارجية يوم ٤ ديسمبر ١٩١٨، و أكد لـ «بلفور» قائلاً: «قد يشع المجتمع اليهودى فى فلسطين المكون من ٤ ملايين إلى ٥ ملايين يهودى [الحضارة] إلى الشرق الأدنى؛ حيث سيسهم فى إعادة إنشاء هذه الدول التى كانت مزدهرة فى الماضى. ولتحقيق هذا الهدف، يجب إقامة دولة قومية حقيقية وليس فقط الحصول على مستوطنات بشكل يسمح بإقامة مجتمع يبلغ عدده من ٤ ملايين إلى ٥ ملايين يهودى فى جيل واحد، وجعل فلسطين دولة يهودية» (فى PRO. FO. 31/3385، فى إنجرامس ١٩٧٢ : ٤٦). كانت جاذبية مثل هذا الاقتراح للمصالح البريطانية معتبرة. وفى مذكرة للقائد الأعلى فى وزارة الحرب التى تحمل عنوان «الأهمية الاستراتيچية لسوريا فى الإمبراطورية البريطانية» (٩ ديسمبر ١٩١٨) جاء: «إن إنشاء دولة يهودية كدولة حاجزة فى فلسطين، حتى وإن كانت هذه الدولة ضعيفة، فهى مطلوبة استراتيچيًا لبريطانيا العظمى» (فى كيالى ١٩٧٩ : ١٦ - ١٧). وبحلول ١٩١٧، كان نصر الحلفاء وتفكك الإمبراطورية العثمانية وشيكًا، الأمر الذى ضمن لبريطانيا العظمى السيطرة على فلسطين.

أما بالنسبة للمعنى الذى يجب إعطاؤه لـ «الوطن القومى اليهودى»، رد «لويد چورچ» على «وايزمان»: «كنا نعنى دولة يهودية»(**)، وتم التأكيد على هذا أثناء الحديث مع رئيس الوزراء و«بلفور» و «تشرشل» و« وايزمان». وفكرة أن الإنجليز كانوا يستعملون كلمة «وطن قومى» بدلاً من « دولة» كان أسلوبًا يهدف إلى عدم إثارة المعارضة العربية؛ وهذا يتضح جيدًا فى مذكرة «هيربرت يونج» من وزارة الخارجية الذى كتب عام ١٩٢١ : «يجب القول بأن أخذ المعارضة الفلسطينية فى عين الاعتبار كان مشكلة تتعلق بالأسلوب وليس أبدًا بالاستراتيچية؛ حيث كانت الاستراتيچية العامة هى تشجيع الهجرة التدريجية لليهود إلى فلسطين، حتى يصبح هذا البلد به أغلبية يهودية . . . إلا أنه كان علينا التساؤل عما إذا كنا فى وضع يسمح لنا بأن نقول للعرب

(*) هذا هو «وايزمان» الذى وصف العرب بأن فى طبيعتهم الخيانة والابتزاز وانعدام الأمانة ـ المترجمة.
(**) وهنا أيضًا تظهر حقيقة الأمانة الإنجليزية ـ المترجمة.

ما نقصده بسياستنا وماذا تعنى هذه السياسة بالفعل؟»(*) (تم ذكره فى ليهن ١٩٨٨ : ٣٢٦-٣٢٧، حاشية ١٠١).

ويبدو أن كلمة «وطن قومى» هى تعبير يقلل من شدة معنى مصطلح «دولة». أثناء المؤتمر الصهيونى الأول فى ١٨٩٧، حدد «هيرتزل» بنفسه هدف الصهيونية بأنه إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، ثم عاد وكتب فى يومياته يوم ٣ سبتمبر ١٨٩٧ : فى بازل أنشأت الدولة اليهودية (هيرتزل ١٩٦٠، ٢ : ٥٨١) وكتب «نوردو» بنفس الأسلوب الغامض عام ١٩٢٠ قائلاً:

> **فعلت ما بوسعى لأقنع من يوالون إقامة دولة يهودية فى فلسطين بأن نجد عبارة مواربة تعبر عما نريد، ولكن بشكل لا يثير الأتراك الذين يحكمون الأرض التى نريدها. كان التعبير غامضًا بالطبع، لكن كلنا كنا نفهم ماذا كان يعنى هذا. فقد عنى «دولة يهودية ـ Judenstaat» فى تلك الفترة وله نفس المعنى اليوم (سايكس١٩٥٣ : ١٦٠، الحاشية ١).**

هذا كما لم يكن لـ «زانجويل» أدنى شك فى فبراير عام ١٩١٩ فى الأهداف الصهيونية فى الاستحواذ على كل شىء: «يجب أن يمتلك اليهود فلسطين كما يمتلك العرب الجزيرة العربية، وكما يمتلك البولنديون پولندا» (١٩٣٧ : ٣٤٢). وكانت وجهة نظر «وايزمان» مماثلة: «نحن، مثل هيرتزل، نعتبر أن الأمر يتعلق بإنشاء دولة يهودية» (١٩٤٩ : ٦٨).

وكان لمساندة بريطانيا العظمى لهذا المشروع تأثير ثورة فورية. فقد ساعدت على إنشاء دولة يهودية وكيلة تستقبل المهاجرين اليهود فى فلسطين، والتى سوف تمنع نمو القومية العربية، وبذلك تخدم نوايا الدولة الراعية [إنجلترا]، وقضت على مشكلة الهجرة اليهودية إلى إنجلترا[1]. كانت فكرة إنشاء دولة يهودية فى فلسطين يمولها

(*) ألا يزال هذا هو الأسلوب الإسرائيلى والأنجلو الأمريكى حتى اليوم؟ ـ المترجمة.

(١) وبالدفاع عن مشروع قانون الأجانب فى ١٩٠٥، قال «بلفور» رئيس الوزراء فى تلك الفترة: «ليس من صالح حضارة هذا البلد أن يكون بها مجتمع كبير من الأفراد، ورغم أنهم وطنيون، فإنهم يبقون شعبًا منفصلاً، ليس فقط يدين دينًا مختلفًا عن ديانة الأغلبية، بل وأيضًا يتزوجون فقط من بينهم» (ذكر فى خاليدى ١٩٩٢ : ٢٣).

اليهود وتساندها منظمات غربية أخرى، حلاّ مثاليّا وغير مكلف لتحقيق أهداف القوى الأوروبية العظمى[1].

عصبة الأمم والانتداب

فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، شرع المنتصرون فى تقسيم غنيمة الحرب. و منح مؤتمر سان ريمو (أبريل ١٩٢٠) لفرنسا انتدابًا على سوريا ولإنجلترا انتدابًا على فلسطين والعراق. وهو الأمر الذى شكل تعارضًا صارخًا مع المادة ٢٢ لميثاق عصبة الأمم الذى كان ينص على أن: «تشكل رغبات هذه الشعوب (والتى تُعتبر أممًا فى طريق الاستقلال) أولوية بالنسبة لخيار المنتدبين».

وحملت عصبة الأمم بريطانيا المسئولية فى إقامة دولة يهودية مع الحفاظ على الحقوق المدنية والدينية لكل سكان فلسطين بدون التمييز على أساس العرق أو الدين (الانتداب على فلسطين، المادة ٢، ٢٤ يوليه ١٩٢٢) وتم إدراج وعد «بلفور» فى الانتداب (التمهيد والمواد ٢، ٤، ٦، ٧، ١٥، ٢٢، ٢٣).

ويبدو جليّا عدم اهتمام عصبة الأمم بالسكان العرب وتجاهلها إياهم لأنه لم يتم على الإطلاق استعمال كلمة «عربى» فى النص. و ركز المؤتمر الصهيونى الحادى عشر فى لندن فى يوليه ١٩٢٠ على التنمية فى فلسطين التى يعتبرها الوطن القومى لليهود. ولن يتم إعطاء الأراضى التى تم شراؤها إلا لليهود، وقد تعارض هذا مع ما كان يزعمه الصندوق الوطنى اليهودى، فقد استلزم ذلك إزاحة العرب من هذه الأراضى قبل البيع (ليهن ١٩٨٨ : ٥٧).

المعارضة العربية

عقب الاشتباكات التى اندلعت فى القدس فى أغسطس ١٩٢٩، وقبل أن تنتشر

(١) قال« وينستون تشرشل» عند زيارته لفلسطين في مارس ١٩٢١ : «أريد أن أقول إن حدثًا مهمّا يدور هنا، وهو حدث كبير لمستقبل العالم. فهو لا يؤذى أحدًا، وهو يحول الصحراء إلى أرض خصبة. . والسكان الذين يشكلون أغلبية سوف يستفيدون بشكل كبير لتحقيق تطورهم.» (فى إنجرامس ١٩٧٢ : ١١٩-١٢٠). أما السير «رونالد ستور» الحاكم العسكرى للقدس، وبعد ذلك لفلسطين، فقد قال عن الصهيونية: «تبارك الله المعطى، وتبارك الله الآخذ، الذى شكل جيبًا يهوديّا مواليًا لإنجلترا فى بحر العروبة المعادية» (مذكرات ١٩٧٣ : ٣٦٤ فى كيجلى ١٩٩٠ : ٨).

بشكل سريع، حيث أودت بحياة ٢٤٠ ضحية يهودية وعربية، أرسلت إنجلترا لجنة اكتشفت أن سبب الاشتباكات هو معارضة العرب للسياسة التى تنص على إقامة دولة يهودية على حسابهم. وفى عام ١٩٣٠، أكدت لجنة ثانية أن المستعمرين اليهود كانوا يطردون العرب من الأراضى التى تم شراؤها منهم. وذَكَّرَ الكتاب الأبيض لحكومة العمال (أكتوبر ١٩٣٠) الجميع بأن مساندة إنجلترا للهجرة اليهودية وفكرة إقامة دولة يهودية كان مشروطًا باحترام الضمانات الواردة فى وعد «بلفور» لصالح حقوق السكان القاطنين بفلسطين.

ومن ١٩٣٢ إلى ١٩٣٧، هاجر حوالى ١٤٤٠٩٣ يهوديًا إلى فلسطين وتضاعفت نسبة ملكية اليهود للأراضى لتصل إلى أعلى حد لها وهو ٥,٧٪ فى عام ١٩٣٩، وارتفعت نسبة اليهود بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٣٩، من ١٠ إلى ٣٠٪من إجمالى سكان فلسطين (٤٥٠٠٠٠) (خاليدى ١٩٩٢ : ٣١ - ٣٣).

وأمام هذا التهديد، أنشأ العرب اللجنة العربية العليا فى أبريل ١٩٣٦. وقد دعت إلى إضراب عام يدوم حتى نهاية الهجرة الصهيونية، وحتى يتم إيقاف تمليك الأراضى، كما دعت إلى اتخاذ إجراءات لإنشاء فلسطين حرة ومستقلة. وانتشر العنف بشكل غير منتظم لكن بارتفاع ملحوظ. وأمام هذا الوضع، قرر الإنجليز أن يرسلوا لجنة ملكية فى نوفمبر ١٩٣٦. وفى تقريرها الذى سلمته فى يوليه ١٩٣٧، اعترفت لجنة «پيل» بأن ممارسة الانتداب كانت غير ممكنة لأنها كانت تتعثر أمام المشكلتين اللتين لا يمكن التوفيق بينهما: دولة يهودية واستقلال عرب فلسطين. وفى خاتمتها، تبنت اللجنة حكمة سليمان، وأوصت بالتقسيم (ليهن ١٩٨٨ : ٥٨).

ورأى عرب فلسطين أن خطة التقسيم هذه كانت تشبه تشريح بلدهم باقتراح ٤٠٪ من فلسطين لليهود الذين يملكون ٥,٧٪ من الأرض. هذا بالإضافة إلى أن الخطة المقترحة تقول إن الدولة اليهودية ستضم آلاف القرى العربية، بالإضافة إلى الكيان العربى بالجليل. هذا كما تم ترحيل العرب من أراضيهم بالقوة، وتم منحها للدولة الجديدة وذلك وفقًا للاحتياجات. وجددت خطة «پيل» التمرد العربى الذى رد عليه البريطانيون بقمع جماعى، حيث قتلوا ٥٠٠٠ عربى وأصابوا ١٥٠٠٠ بجروح وذلك من مجموع مليون نسمة خلال الثورة التى نشبت من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩

(خـاليـدى ١٩٩٢ : ٣٤). وتبع ذلك ـ بشكل دورى ـ نزع سـلاح العـرب وتحطيم منظماتهم السياسية.

وشكلت خطة «پيل» بشأن التقسيم الاعتراف الأول بأن الوطن القومى اليهودى كان يعنى بالفعل الدولة اليـهودية مما أبهج «بن جوريون» و«وايزمان»، و أعطى فى دفعة واحدة ٤٠٪ من أرض فلسطين لليهود، أى أكثر مما كانوا يمتلكون فى الواقع بسبعة أضعاف. ولكن رأى «چابونتسكى» زعيم المعارضة الصهيونية أن ذلك يشكل خيانة لفكرة إسرائيل الكبرى القائمة على ضفتى نهر الأردن.

ورغم أن خطة التقسيم سوف توضع على الرف فيما بعد، فقد رفعت الطموح الصهيونى، وصارت مقياسًا تعاير عليه الإنجازات اللاحقة. وفى نوڤمبر عام ١٩٣٧، أسست الوكالة اليهودية لجنة خاصة لترحيل السكان(*). وحددت إنجلترا، التى اعترفت أخيرًا أنه لا يمكن تحقيق التقسيم، أهدافها ونواياها فى ورقة بيضاء يوم ١٧ مايو ١٩٣٩. وكانت السياسة الجديدة تهدف إلى: «إقامة دولة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات. . . . والتى سيتشارك فيها العرب واليهود الحكومة بشكل يتم فيه ضمان المصالح الأساسية لكل مجتمع». واستلزمت الورقة وضع قيود على ضم اليهود للأراضى، وعلى الهجرة اليهودية لفلسطين.

وكتب «يوسف ويتز» القائم على لجنة الترحيل ومدير مصلحة الأراضى فى الصندوق القومى اليهودى فى يومياته يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٤٠:

> **بالنسبة لنا، يجب أن يكون من الواضح أنه ليس هناك مكان لشعبين فى هذا البلد. إذا غادر العرب فسوف يصبح الوطن كبيرًا وواسعًا. . . . . الحل الوحيد هو أرض إسرائيل بدون عرب. . . . . وفيما يخص هذا الموضوع، ليس هناك أى حل وسط. . . يجب إذن ترحيل العرب إلى الدول المجاورة، كل العرب باستثناء ـ ربما ـ عرب بيت لحم والناصرة والمدينة القديمة فى القدس. يجب أن لا تبقى أية قرية ولا أية قبيلة. فليذهبوا إلى العراق وسوريا وحتى إلى الضفة الأخرى من الأردن [الضفة الشرقية]. سنجد**

(*) المقصود السكان العرب، وترحيلهم أى طردهم ـ المترجمة.

الأموال اللازمة لهذه العملية . . . . وبعد الانتهاء من ترحيلهم يمكن للوطن أن يستقبل الملايين من إخوتنا وستنتهى المشكلة اليهودية . ليس هناك حل آخر . (ڤايتز ١٩٦٥ : II، ١٨١ ـ ذكره موريس ١٩٨٧ : ٢٧) .

ووعيًا منه بأن المصالح البريطانية قد تتعارض مع مصالح الصهيونية ، بدأ« بن جوريون» فى تحفيز اليهود الأمريكان والحصول على مساندة أكبر من الولايات المتحدة الأمريكية، بينما كان يواصل «وايزمان» فى الوقت ذاته عمله الديپلوماسى فى لندن التى كانت فى حرب . وبموت الرئيس «روزڤلت» فى أبريل ١٩٤٥ ، تولى نائب الرئيس «ترومان» مقاليد البيت الأبيض ، وأثبت فورًا أنه مؤيد غيور للقضية الصهيونية . وفى ٢٤ أبريل ١٩٤٥ ، كتب لـ «تشرشل» يطلب منه أن يرفع القيود المفروضة على هجرة اليهود ـ الذين استأصلهم القمع النازى عديم الرحمة ـ إلى فلسطين (خاليدى ١٩٩٢ : ٤٨) . وكنا نتوقع أن يكون «ترومان» أول من يقبل فى أمريكا حوالى ٣٠٠٠٠٠ من اليهود الناجين من البربرية النازية والذين كانوا ينتظرون ذلك فى العديد من معسكرات الإيواء . ولكن حققت خطته ميزتين : حصل على دعم الصهاينة ، وجنب أمريكا وطأة الهجرة اليهودية . وقال فى أكتوبر ١٩٤٥ وهو يوجه حديثه إلى الديپلوماسيين العرب : أنا متأسف أيها السادة ، فأنا ملتزم أمام مئات الآلاف من المواطنين الذين يريدون نجاح الصهيونية(*) ، وليس لدى مئات الآلاف من العرب ضمن دوائرى الانتخابية (خاليدى ١٩٩٢ : ٥٠ - ٥١) .

وكانت رسالة «ترومان» بتاريخ ٢٤ يوليه ١٩٤٥ موجهة لـ «تشرشل» ، ولكن وصل حزب العمال إلى السلطة مع «أتلى» كرئيس وزراء بعد انتخابات ٢٦ يوليه . وفى هذا الوقت، تعاطف الحزب بشكل واسع مع الصهيونية ، وأعلن عن الحل الذى يراه مناسبًا : « فلنشجع العرب على الذهاب كلما أتى اليهود» (١٩٤٤ ، تقرير المؤتمر السنوى العام ، ص ٩ فى ماهيو ١٩٧٥ : ٣٤ فى أدامز و مايهيو ١٩٧٥) .

ووفقًا لتوصيات اللجنة الأنجلو ـ أمريكية ، اشترط الإنجليز حل المنظمات العسكرية الصهيونية لقبول ١٠٠٠٠٠ مهاجر يهودى . وقتلت موافقة «ترومان» (٤ أكتوبر

(*) يقصد بذلك الصهاينة المسيحيين ـ المترجمة .

١٩٤٦) على الخطة الصهيونية فى أغسطس، اقتراح المندوبين العرب فى مؤتمر لندن (سپتمبر١٩٤٦) لإنشاء دولة فلسطينية موحدة يتم فيها اكتساب المواطنة الفلسطينية بعد ١٠ سنوات من الإقامة مع ضمان حقوق اليهود. وفى هذه الفترة كانت فلسطين مقسمة إلى ١٦ مقاطعة؛ ولم تكن الأغلبية اليهودية مستقرة إلا فى واحدة من هذه المقاطعات وهى مقاطعة يافا. وعلى الرغم من هذا، فإن خريطة الصهيونية التى أيدها «ترومان» فى ٤ أكتوبر ١٩٤٦ (يوم كيپور)، نصت على إدماج ٩ مقاطعات فى دولة إسرائيل، بل أجزاء كبيرة من المقاطعات الأخرى. ونصت على وضع خاص فى القدس. وأعطت الخطة ٧٥٪ من أراضى فلسطين لليهود الذين كانوا يمتلكون أقل من ٧٪ من أرضها، بينما وقعت ١٠ مستوطنات إسرائيلية، أى ما يعادل ٢٠٠٠ يهودى، تحت السلطة العربية، و ٤٥٠ قرية عربية، أى ٧٠٠٠٠٠ مواطن عربى تحت السلطة الصهيونية. هذا بالإضافة إلى أن العرب خسروا أراضيهم الأغنى، ومعابر البحر باستثناء ممر واحد يؤدى إلى يافا. وكانت مساندة البيت الأبيض للخطة الصهيونية حاسمة، ووقعت حكومة «أتلى» تحت ضغط كبير من الولايات المتحدة التى فرضت على بريطانيا ـ بواسطة السبل الديپلوماسية ـ أن تقبل فوراً هجرة ١٠٠٠٠٠ يهودى إلى فلسطين. وفى مواجهة الاعتراضات التى عبر عنها «كرستوفر مايهيو» السكرتير فى وزارة الخارجية والذى كان يعتبر أن مثل هذا العمل سبيل لإشعال الحرب:

. . . . . رد السفير بحذر وروية قائلاً: « إن الرئيس يريد أن يعلم ما إذا كنا قادرين على مساعدته فى هذه المسألة، فإن هذا سيسهل مهمة أصدقائنا فى واشنطن لجعل الكونجرس يقبل حصتنا فى مشروع مارشال. وبعبارات أخرى، يجب أن ننحنى لأمنيات الصهاينة ورغباتهم و إلا سوف نموت من الجوع. و استسلم بيقين» (مايهيو ١٩٧٥ : ١٨ - ١٩ فى أدامز ومايهيو).

خطة الأمم المتحدة بشأن التقسيم عام ١٩٤٧

أمام عدم إمكانية التوصل لاتفاق بشأن فلسطين، أعلنت حكومة إنجلترا يوم ١٨ فبراير ١٩٤٧ «أن الحل الوحيد يكمن فى تقديم المشكلة للأمم المتحدة». وفى أبريل ١٩٤٧، بناءً على طلب من الإنجليز، عقدت الجمعية العمومية اجتماعًا طارئًا،

وقررت أن ترسل لجنة تحقيق من الأمم المتحدة (UNSCOP) إلى فلسطين. وعقب ذهابها إلى المنطقة، أوصت اللجنة بالتقسيم وفقًا للحدود الواسعة على خريطة يوم كيبور التى ساندها «ترومان». وتم منح النقب أيضًا لليهود على الرغم من أن ١٠٠٠٠٠ بدوى كانوا يزرعون جزءًا كبيرًا من الأراضى، بينما كان حوالى ٤٧٥ يهوديًا فقط يعيشون فى ٤ مستوطنات.

وفى توصيات لجنة الأمم المتحدة، يأخذ الصهاينة ٥٧٪ من الأرض التى كانت معظمها أراضى صالحة للزراعة، وكان معظمها يقطنها سكان عرب، أما الدولة الفلسطينية فتأخذ ٤٣٪ من الأرض. برغم أن اليهود عام ١٩٤٨ لم يمتلكوا إلا ٦,٦٪ من فلسطين (انظر جريش وفيدال ١٩٨٨ : ٢٩، خورى ١٩٨٥ : ١٨، ليهن ١٩٨٨ : ٧٠ - ٨٠). هذا بالإضافة إلى أن اليهود لم يكونوا يمثلون إلا ثلث الشعب (من ٥٠٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠٠ يهودى مقابل ١,٤ مليون فلسطينى).

وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع ـ مع إلحاق بعض التعديلات ـ على خطة التقسيم التى اقترحتها لجنة الأمم المتحدة من أجل فلسطين؛ حيث أقر ٣٣ مندوبًا الخطة، بينما رفضها ١٣ مندوبًا، وامتنع عن التصويت ١٠ مندوبين. وأوصت الجمعية بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين يهودية وعربية، و أصبحت القدس عاصمة دولية[1]. ولم يقبل العرب هذه الخطة حيث ندد المندوبون العرب فى الجمعية العامة بدور الأمم المتحدة فى فرض مثل هذا المشروع ضد رغبة العرب. ولم يجد مشروع قرارهم الذى يقضى بأن كل دولة عضوة فى الأمم المتحدة يجب أن تستقبل ـ وفقًا لمواردها «اليهود الأوروبيين الذين هم فى مأزق» والدعم الكافى.

فور الموافقة على قرار التقسيم، أعلن الإنجليز أمام تصاعد الأعمال الهجومية الشبيهة بالحرب الأهلية ضد بريطانيا، أنهم ينهون الانتداب فى فلسطين وأنهم

---

(١) تقول السجلات الرسمية للاجتماع الثانى للجمعية العامة، قرار ١٨١(II)، ص ١٣١-١٣٣ : «ستكون القدس عاصمة منفصلة تخضع لنظام دولى خاص، وستخضع لإدارة الأمم المتحدة. وستضم مدينة القدس بلدية القدس الحالية، بالإضافة إلى المدن والقرى المحيطة بها حتى أبو ديس شرقًا وبيت لحم جنوبًا و عين كريم؛ بما فى ذلك المنطقة المبنية فى موتسا غربًا والشوفات شمالاً».

سيغادرون المنطقة فورًا . وانتهى الانتداب البريطانى فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وبدأت الأمم المتحدة الإشراف على عملية التقسيم . إلا أن عدم قدرة الأمم المتحدة على وضع قوة دولية قادرة على حل المشكلة أدى بالأطراف المتنازعة إلى بدء المعارك التى كانت ستؤدى حتمًا إلى نصر الصهاينة نظرًا لتفوق مصادر الصهيونية . ولم يكترث اليهود بعد ذلك بشراء الأراضى التى كان يمتلكها العرب .

ما بين خطة التقسيم ونهاية الانتداب

كانت فترة الستة أشهر التى تفصل إعلان الأمم المتحدة ونهاية الانتداب (من ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ إلى مايو ١٩٤٨) فترة حاسمة فى حفاظ الصهاينة على غنيمتهم . وكانت الحركات اليهودية الموجودة فى فلسطين قبل ١٩٤٨ وأثناءها (يشوف) منظمة بشكل أفضل على المستوى العسكرى والإدارى مقارنة بالعرب الفلسطينيين (موريس ١٩٨٨ : ٧) . وكانت الحركة القومية الفلسطينية متخلفة بالمقارنة بالمنظمات اليهودية فيما يخص التماسك والتنظيم والتعبئة والأداء ، حيث كانت مقسمة ومشتتة بشكل كبير وغير منظمة ، وليس لديها تجارب كافية لمواجهة المشاكل المعقدة التى كانت ستتعرض إليها (موعاز ١٩٩٢ : ١٥٣) . وقد وضعت القيادة الصهيونية العليا خطتين جديدتين ، خطة جيمل و خطة داليت ، بهدف احتلال أكبر قدر ممكن من الأراضى العربية ، واستبعاد أكبر قدر من الفلسطينيين . وكان المدبر الأساسى لهاتين الخطتين «يجال يادين» قائد عمليات الهاجانا . وكانت خطة جيمل تهدف إلى كسب الوقت الكافى لحشد القوات الضرورية لتحقيق خطة داليت العامة ، بهدف احتلال جميع الأماكن التى كان يحتلها الإنجليز . وفى أثناء هذه الفترة كانت المقاومة العربية قوية لدرجة أنها دفعت منذ نصف مارس ١٩٤٨ بالإدارة الأمريكية إلى إعادة النظر فى موقفها والتفكير فى عقد اجتماع طارئ للجمعية العمومية للأمم المتحدة ، لمناقشة إمكانية إقامة انتداب دولى على فلسطين .

وقبل بضعة أسابيع من نهاية الانتداب البريطانى ، أصبح من العاجل البدء فى تطبيق خطة داليت . وتمثلت الاستراتيچية فى شن هجمات مفاجئة ضد المدنيين . فى إطار الحرب النفسية ، كانت إذاعة الهاجانا السرية تذيع باللغة العربية وتهدد بشكل

عنيف العرب وتشرح لهم ما يجب عمله للفرار . ولتأكيد هذه التهديدات النفسية ، كانت تتزامن معها عمليات وحشية دعائية يتم التدبير لها بدقة ، بشكل يؤدى إلى تعجيل هجرة سكان المدن والأرياف . ويبرر «بينى موريس» هذا التخطيط مؤكدًا أنه يتعلق باعتبارات وأهداف عسكرية ، وليس اعتبارات عرقية (١٩٨٧ : ٦٢ - ٦٣) .

وللتخفيف من حدة الضغط على يهود القدس ، قرر «بن جوريون» والقائد الأعلى للهاجانا فى ليلة ٣١ مارس أن كل القرى العربية الواقعة على محور خولدا ـ القدس هى قرى تنتمى للعدو ؛ وبالتالى يجب استهدافها . ووفقًا لخطة داليت ، كان يجب تدمير القرى التى تقاوم وطرد سكانها . وتم الاستيلاء على القرى بشكل سريع (القسطل والقاليونية و الخولدا وساريس وبيدو وبيت سريق) . وإذا كان تدمير القرى التى لم تكن تقاوم ، يتعارض مع خطة داليت ، فإن هذه الأعمال تتماشى مع الحلم الصهيونى . ووفقًا للهجة «موريس» ، عندما يتعلق الأمر بمعركة حياة أو موت ، فلا مفر من مواجهة التحدى (١٩٨٧ : ١١٣) . وخلال ليلة ٩ أبريل ١٩٤٨ ، شنت فرقة مكونة من ١٣٢ رجلاً ينتمون إلى قوات إيرجون[١] وشتيرن[٢] التى كانت تدعمها مدفعية الهاجانا ، هجومًا على قرية دير ياسين فى غرب القدس . وفى ظهر اليوم التالى للهجوم ، تم ذبح ٢٥٤ مواطنًا فلسطينيًا بما فى ذلك ١٠٠ امرأة وطفل . وتم رمى جثثهم فى الآبار ورشها بالكيروسين وحرقها[٣] .

---

(١) Irgun Zvai Leumi (المنظمة العسكرية القومية) كانت مجموعة سرية تكونت عام ١٩٣١ من قبل زعماء صهاينة بهدف إنشاء دولة بها أغلبية يهودية فى كل الأرض الفلسطينية التى وقعت تحت الانتداب ، بما فى ذلك الضفة الشرقية لنهر الأردن .

(٢) Lohamei Herut Yisrael والتى تعرف أكثر باسم « عصابة شتيرن ـ Stern Gang» ، بعد أن انفصل مؤسسها أبراهام شتيرن من إيرجون فى يونيه ١٩٤٠ ، كانت المنظمة تريد الاستبعاد الكامل والجبرى للشعب العربى الفلسطينى وكانت تطالب بتبادلهم مع اليهود الذين يعيشون فى الدول العربية الأخرى . وهى مجموعة إرهابية صهيونية أسّست فى ١٩٤٠ من قبل أبراهام شتيرن (١٩٠٧ - ١٩٤٢) . نفّذت المجموعة هجمات إرهابية معادية لبريطانيا والعرب خلال فترة الانتداب البريطانية فى فلسطين ، وكانت الهجمات على الأفراد وعلى الأهداف الاستراتيجية . قتل عدد كبير من أفراد العصابة من قبل القوات البريطانية فى ١٩٤٢ لكن المجموعة بقيت حتى ١٩٤٨ عندما منعت من نشاطها بعد إنشاء دولة إسرائيل .

(٣) وقد وصف ضابط قديم فى استخبارات شتيرن ـ من الذين شاركوا فى هذه المذبحة ـ أعمالها الوحشية (هاآرتس ، ٢٥ أبريل ١٩٩٣) . وقد لخص فرانكلين شهادته وشهادة أحد ضباط الاستخبارات من الموساد (١٩٩٥ : ١٨٩ هامش ١٦) . .

وكان هناك أيضًا حالات بتر أعضاء واغتصاب . وقال «موريس» : «لم يكن لدى المحاربين النية للقيام بهذه المذابح ، ولكنهم كانوا يفقدون رءوسهم أثناء المعارك» . ويعترف أن هدفهم كان يكمن فى طرد سكان القرى . وعلى كل حال ، نشرت مذبحة دير ياسين الرعب والهلع فى القرى المجاورة التى فر منها سكانها فور العلم بهذه المجزرة (موريس ١٩٨٧ : ١١٥) . وكانت المنظمات الصهيونية المسئولة عن المجزرة تقوم بذلك بأمر من رجلين سوف يصبحان فى المستقبل من رؤساء وزراء دولة إسرائيل : مناحم بيجن ، زعيم منظمة إيرجون من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٨ ، وإسحاق شامير نائب القائد فى منظمة شتيرن .

أدى تنفيذ خطة داليت إلى إحداث رعب لا مثيل له لدى الفلسطينيين(١) . وقد غرق مئات الرجال والأطفال ونساء المدن الساحلية المتاخمة ليافا وحيفا وعكا وهم يحاولون الهرب واللحاق بأى مراكب تأخذهم إلى مكان آمن . وتم طرد مئات الآلاف خارج الحدود من قبل القوات اليهودية المنتصرة . ومنذ ٢٣ أبريل حققت خطة داليت أهدافها .

وأخبر «ترومان» «وايزمان» أنه إذا تم إنشاء دولة يهودية ؛ فإنه سيعترف بها فوراً . وفى الرابع عشر من مايو ، وهو آخر يوم للانتداب البريطانى ، قام الأمين العام للإدارة البريطانية بتنظيم مؤتمر صحفى فى فندق الملك داوود بالقدس ، ورداً على سؤال أحد الصحفيين عمن سيتولى منصبه بعده ، صرح قائلاً : «سأضع مفاتيح مكتبى تحت الفرش» (خاليدى ١٩٩٢ : ٧٦) . وفى اليوم ذاته أعلنت اليوشوف (الجماعات اليهودية فى فلسطين قبل وأثناء ١٩٤٨) قيام الدولة الإسرائيلية ، وفور ذلك اعترفت بها الولايات المتحدة .

المرحلة الثالثة للصهيونية (دولة إسرائيل ١٩٤٨ - ١٩٦٧)

فى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ ، أعلن بن جوريون قيام الدولة الإسرائيلية . وفى اليوم التالى ، دخلت وحدات من الجيوش العربية للدول المجاورة فلسطين ، كانت تضم حوالى ١٤٠٠٠ جندى إلا أنها لم تستطع التغلب على القوات الصهيونية التى فرضت نفسها فى الصراع المسلح ، و احتلت أخيراً ٧٨٪ من أرض فلسطين .

(١) كانت السياسة اليهودية التى عبرت عنها خطة داليت هى السبب الأساسى لرحيل أغلبية عرب فلسطين (پاپيه ١٩٩٢ - ١٩٩٣) .

وعقب نهاية المعارك، كانت إسرائيل تسيطر على كل أراضى الانتداب باستثناء الضفة الغربية وغزة. ويوجد العديد من الأساليب التى من شأنها أن تشرح فداحة الكارثة(النكبة)[١] فى فلسطين[٢].

ترحيل اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٤٨[٣]

و يمكن قياس فداحة الكارثة التى حلت بفلسطين بعدد الأشخاص الذين تم ترحيلهم؛ حيث فر أغلبهم أو تم طردهم من أراضى الدولة الجديدة. وماعدا بعض الاستثناءات القليلة، تم إخلاء المدن الفلسطينية الكبرى، بما فى ذلك المدن التى بها أغلبية عربية من السكان الفلسطينيين واستولى الصهاينة على ممتلكاتهم. هذا بالإضافة إلى مئات القرى العربية التى تم إخلاؤها من سكانها وتدميرها. وبقى حوالى ١٥٦٠٠٠عربى فلسطينى فى مدنهم وقراهم فى وسط الأرض التى أصبحت إسرائيلية، بينما طرد حوالى ٢٥٪ من السكان العرب من قراهم، ونُقلوا إلى أماكن أخرى فى إسرائيل؛ حيث أصبحوا «لاجئى الداخل» (أو وفقًا لحقهم فى الامتلاك «الغائبين الحاضرين»، فلا يتم اعتبارهم فى حسبان الأشخاص المرحلين).

ويُقدر إجمالى عدد العرب الفلسطينيين المرحلين عام ١٩٤٨ بحوالى ٧١٤١٥٠ شخصًا[٤]، أى ما يعادل ٥٤٪ من الشعب الفلسطينى تحت الانتداب. هذا كما تم

---

(١) النكبة هو عنوان كتاب تاريخ صدر عام ١٩٤٨فى ستة مجلدات، مؤلفه المؤرخ الفلسطينى عارف العارف (بيروت وصيدا: المكتبة العصرية ١٩٥٦ -٦٠).

(٢) قُتل حوالى ١٣٠٠٠فلسطينى معظمهم من المدنيين (خاليدى ١٩٩٢ الملحق ٣: ٥٨١ - ٥٨٢) وتم تشريد أسر بأكملها، كما تضررت دول مجاورة الخ، وقد قام هداوى بتقدير الخسائر المادية والمالية للحدث (١٩٨٨: ١٨٣).

(٣) يطلق القرار ٢٤٢ لمجلس الأمن على الأشخاص المرحلين اسم «اللاجئين». وكلمة «لاجئ» غير مناسبة لأنه فى القانون الدولى وفى معاهدة الأمم المتحدة من أجل اللاجئين، تعنى الكلمة كل من يريد أن يقطن أو يقيم فى بلد أجنبى لأنه غير مرغوب فيه فى بلده الأم، وذلك خوفًا من التعذيب والاضطهاد الخ.
إلا أن «اللاجئين» الفلسطينيين يريدون أن يبقوا فى وطنهم، إذن الأمر يتعلق بالفعل بأشخاص مرحلين.
وهذا رأى جون كويجلى، وهو أستاذ القانون والعلوم السياسية فى جامعة ولاية أوهايو.

(٤) تقدر چانيت أبو لغد هذا العدد ما بين ٧٧٠٠٠٠ و٧٨٠٠٠٠ (١٩٨٧: ١٦١). أما إليا زوريق فيقدره بما يتروح مابين ٧٠٠٠٠٠ و٨٠٠٠٠٠ (١٩٩٤: جدول ٣، ١١). ووفقًا لتقرير المفوض العام لوكالة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة (UNRWA) كان هناك فى عام ١٩٩٤: ٥٠٤٠٧٠ لاجئًا فى الضفة الغربية، أى ما يعادل ٤٢٪من الشعب و٦٤٣,٠٠٠ فى قطاع غزة أى ٥٥,٧٪ (انظر سابيلا ١٩٩٦: ١٩٣). أما تقرير اللجنة فى عام ١٩٩٥، فيقدر أن هناك حوالى ٤,٦٤٥,٢٤٨ فلسطينيًا فى مخيمات فى سوريا ولبنان والأردن، وفى أماكن أخرى.

إضافة ٦ ملايين دونم - أى ما يعادل ٤ أضعاف مساحة الأراضى الفلسطينية التى اشتراها الصهاينة خلال السبعين سنة السابقة - إلى المستوطنات اليهودية القديمة والجديدة (خاليدى ١٩٩٢ : ٣٣).

تدمير القرى

لم يُعر المجتمع الدولى انتباهه للتدمير الدورى لبعض القرى الفلسطينية من قبل الإسرائيليين، لأن الدولة الإسرائيلية أخفت أسرارها بهذا الشأن، حيث لم تكن هناك أية إحصائية منشورة عن عدد هذه القرى أو أماكنها. وحقيقة أن التدمير كان شاملاً تفضح زعم اليهود بأنهم دخلوا فى بلد خالٍ وزرعوا الصحراء[1].

ويوضح غياب المصادر الفلسطينية بشأن الخسائر التى لحقت بهم عدم قدرتهم، بل وأيضًا مثلما يشير «إدوارد سعيد»، «عدم كفاءتهم الجماعية»؛ مما يؤدى إلى نقص الروايات الفلسطينية عن ١٩٤٨ والفترات اللاحقة، والتى كان عليها أن تواجه غزارة الروايات الإسرائيلية.

وعقب حرب ١٩٤٨، تم إخلاء مئات القرى من السكان، وتفجير المنازل بالديناميت أو محوها بالدبابات والمدرعات. ولم يتم الإبقاء إلا على مئة قرية فلسطينية فقط واقعة فى المناطق التى تم احتلالها حتى اليوم. كذلك تم مصادرة ٨٠٪ من الأراضى التى يمتلكها أفراد لم يغادروا قراهم أبدًا، وتم منحها بدون قيود إلى مواطنين يهود (خاليدى، ١٩٩٢، xxxii، انظر جريسى ١٩٩٤ : ٥٠- ١). وتشير الدراسة الشاملة والعميقة التى قام بها «خاليدى» إلى تفاصيل تدمير كل قرية وتعطى إحصائيات ومختلف أنواع المعلومات: جغرافية ومساحية وتاريخية وهندسية ومعمارية وأثرية واقتصادية، مع ذكر الظروف التى صاحبت الاحتلال، بما فى ذلك وصف طرد السكان ووصف بقايا كل حالة (خاليدى ١٩٩٢ xviii-xiv) .

---

(١) فى سبتمبر ١٩٨٧، تم توزيع طلب تبرع لجمع ستة ملايين فرنك لزرع الغابات السويسرية فى منطقة طبرية. وشكر الصندوق الوطنى اليهودى أولئك الذين وفروا الأموال، حيث سيسهمون فى تحويل الصحراء إلى أرض خضراء. وتم إقامة هذه الغابات على بقايا القرى الفلسطينية (الديب : ١٩٩٢ : ٨).

ومـا بقى يعـد ذكـرى ترصـد آلام مـئـات الآلاف من الرجـال والنسـاء والأطفـال ومـعـاناتهـم، وكـأنه يشـيـد بالذكـرى الجـمـاعـيـة لهم ولتـاريخـهـم (خـاليـدى ١٩٩٢ : xvii-xxxiv). والرقم الذى يقدمه خاليدى بشأن تدمير ٤١٨ قرية جدير بالتـصـديق، وهو يُشكل نصف إجـمـالى عـدد القـرى العـربيـة فى فلسطين[١] تحت الانتـداب. فـمن أصل ٤١٨ قـرية، تم تـدمـير٢٩٣ (٧٠٪) منهـا بشكـل شـامل و٩٠ (٢١,٥٪) تم تدميرها بشكل كبير، ولـم يتبق سليـمًا إلا سبع قرى، بما فى ذلك عين كريم، إلا أن المستوطنين اليهود استولوا عليها.

و كـان يمكن لأى زائر ذى نظرة ثاقبـة أن يتـعـرف على بعض الآثار التى تـشيـر إلى وجود قرى فى الماضى، لم يبق منها فى الغالب إلا «حجارة متناثرة توحى بمنظر حزين» (خاليدى١٩٩٢ : XV)[٢].

وكان اغتصاب الأماكن المقدسة مهينًا بصفة خاصة[٣].

(١) قام بينى موريـس عـام ١٩٩٠ بـدراسة رصـدت قـائمـة المدن والقرى المحتلة. وقـام بالأمر ذاته أيضًا إسرائيل شـاحاك، فأعد قائمة للقرى التى تم تدميرهـا (١٩٧٥). وقامت الحكومة الإسرائيلية بإعادة طبع خريطة رسمها الانتداب البريطانى، مع طباعة كلمة «هاروس» التى تعنى بالعبرية مدمرة. وأسفرت جهود تحديد تلك القرى المدمرة عن أرقام تتراوح بين ٢٩٠ إلى ٤٧٢ قرية.

(٢) زار باحثو خاليدى كل المواقع المعنية باستثناء ١٤ منها، حيث تم القيام بدراسات مفصلة ومصورة لما تبقى من آثار (خـاليـدى ١٩٩٢ : xix)، وتوضح الصـور قـرى تم إزالتـهـا، وبناء حدائق وأمـاكن ترفيـه على أرضـهـا، مـثل الطنطورة، زرين، ومـقـبـرة سلامـة (ص xxxix) بالإضـافـة إلى بقـايا الأديرة والمسـاجد والكنائس والمقابر(ص xliii-xliv).

(٣) انظر جريسى ١٩٩٩٤ : ٤٩. وتم تحويل كنيسة أرثوذكسية فى عين كريم إلى دورة مياه عامة، ومسجد صفد إلى معرض للفنون، ومساجد أخرى فى قيصرية و عين هود، إلى مطاعم وبارات. وتم تشييد فندق هيلتون تل أبيب وفندق بلازا فى القدس والحدائق المجاورة، والتى أطلق عليها اسم حدائق الاستقلال، على مقابر مسلمين (يو. داڤيس ١٩٨٧ : ٢٤). وتمثل حالة قرية بيرام المسيحية مثالاً صارخًا على هذه الاعتداءات، فقد غـادر سكان هذه القرية منازلهم فى عام ١٩٤٨ بعد تسليـمهـم ضـمـانات كـتـابية على رجوعهم بعد أسبوعين، الأمر الذى لم يحدث. وفى نهاية ١٩٥٠، أبلغت المحكمة العليا الإسرائيلية الذين رحلوا أن بإمكانهم الرجوع إلى ديارهم إلا أن القادة العسكريين رفضوا تطبيق قرار المحكمة العليا (شكور ١٩٨٥ : ٣٦ - ٣٨، ٧١)، وليـمنع نهائيًـا رجوع سكان هذه البلدة ، أصدر « بن جـوريون» أمرًا بتدمير القرية فى ١٦ سبتمبر ١٩٥٣. وفى عام ١٩٨٧، قام أتباع الحاخام «مائير كاهان» تحت حماية الشرطة بمحو الصلبان ورموز أخرى مسيحية منقوشة على جدران المنازل المدمرة. وفى سبتمبر دمروا قبر القسيس الذى تم دفنه قبل ثمانية شهور (الديب ١٩٩٢ : ٩) أما بقايا دير ياسين، فتم بناء مستشفى أمراض نفسية للإسرائيليين عليها.

وأدى طرد السكان وتدمير ٤١٨ قرية عربية إلى هجرة ٣٨٣١٥٠ ساكنًا، مع حوالى ٦٩٩٤ من القرى المجاورة، أى ما يعادل مجموع ٣٩٠١٤٤ ساكنًا مرحلاً. ويبدو هذا الرقم أقل من الحقيقة (خاليدى١٩٩٢ : ٥٨١). أما بالنسبة للمدن، فالرقم الذى يمكن تقديره للسكان المرحلين يصل على الأقل إلى ٢٥٤٠١٦ .هذا كما يجب إضافة ما بين ٧٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ بدوى تم ترحيلهم عقب حرب ١٩٤٨.

ما زال هناك الكثيرون الذين يعتقدون أن الفلسطينيين غادروا منازلهم وممتلكاتهم برضاهم، برغم الأدلة الوفيرة التى تثبت أن الاستيطان اليهودى استلزم استبعاد أغلبية السكان الفلسطينيين (ماسالها ١٩٩٢ : پاسيم).

ولكن حتى إن لم يكن هناك أدلة بشأن الطرد والمذابح لتفنيد حملة الدعاية الصهيونية، فإن رفض إسرائيل المتعنت للسماح للفلسطينيين بالرجوع إلى ديارهم كاشف تمامًا عن سياستها ونواياها [1]. هذا كما أن نفس الموقف بشأن المرحلين عام ١٩٦٧، يؤكد أن الصهيونية كانت تهدف من البداية إلى استبدال اليهود بالسكان الأصليين.

المرحلة الرابعة للصهيونية (١٩٦٧ -)

أدى الهجوم الوقائى الذى شنته إسرائيل ضد مصر بحجة أن العرب سيشنون حربًا تهدد وجود إسرائيل إلى اندلاع حرب ١٩٦٧ التى استمرت من ٥ إلى ١١ يونيه. ولم تكن إسرائيل فى الواقع خاضعة لأى تهديد ولا لأى خطر، والتفسير الأكثر إقناعًا لهذا العدوان الإسرائيلى؛ هو رغبتها فى جنى ثمار نصر أكيد. وعشية اندلاع الحرب، ذكر الوزير «يجال ألون» أنه من أولويات إسرائيل «تحقيق الوعد بأرض إسرائيل» (انظر فينكلشتاين ١٩٩٥ : ١٣٢ - ٤٣).

وأدى نصر إسرائيل إلى ضم الضفة الغربية (بما فى ذلك القدس الشرقية) على حساب الأردن، ومرتفعات الجولان على حساب سوريا، وغزة وسيناء على حساب

(١) منع الأعضاء الثلاثة عشر فى الحكومة المؤقتة رجوع اللاجئين يوم ١٦ يونيه ١٩٤٨. ولم يتم أبدًا الإعلان عن هذا القرار، و كان يجب أن تخضع بيانات بن جوريون وشاريت لعدة تعديلات حتى تتماشى مع المعايير السياسية الدولية (موريس ١٩٩٥ : ٥٦).

مصر. وتجلت رغبة إسرائيل فى الحصول على مزيد من الأراضى فى تدمير ١٣٥ منزلاً عربيّا فى الحى المغربى القديم لبناء ساحة أمام حائط المبكى، وعن طريق إصدار قانون يوسع حدود القدس الشرقية؛ حيث ضمت قرى قريبة من بيت لحم جنوبًا ومن رام الله شمالاً. وأدانت الأمم المتحدة وأغلبية دول العالم ذلك، ووصفت أعمال إسرائيل بأنها غير شرعية (انظر پلايفير ١٩٩٢ : ١) وعلى الرغم من هذه المعارضة الدولية، أكدت إسرائيل عام ١٩٨٠ هذه الأعمال عندما أعلن الكنيست الإسرائيلى أن «القدس بأكملها (أى القدس الشرقية والغربية) هى العاصمة الأبدية لإسرائيل».

خلال الاجتماع الطارئ الخامس للجمعية العامة، كان هناك إجماع شبه تام بشأن فرض انسحاب القوات إلى حدود ٤ يونيه. وصوت مجلس الأمن على القرار ٢٤٢ (٢٢ نوڤمبر) حيث أصر على عدم شرعية امتلاك الأراضى واحتلالها عن طريق الحرب، وأصر على ضرورة العمل لتحقيق سلام دائم وعادل، حتى تعيش كل دولة من دول المنطقة فى سلام. كما طالب القرار بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى التى احتلتها خلال الحرب الأخيرة. وفهمت كل الأطراف المعنية ـ باستثناء إسرائيل ـ «الانسحاب من أراض محتلة» (بدلاً من «الانسحاب من الأراضى المحتلة») أنه يعنى الانسحاب من كل الأراضى المحتلة، مع اقتراح إجراء تغييرات بسيطة على الحدود المرسومة قبل ٥ يونيه ١٩٦٧ (انظر نيف ١٩٩١ : ١٧، الذى ذكر لورد كارادون، ودين رسك، والرؤساء كارتر وريجان وبوش).

وقد ضاعت فرصة الحل السلمى للمشكلة عام ١٩٧١، عندما أكدت كل من مصر والأردن للممثل الخاص للأمم المتحدة «جونار يارنج» استعدادهما لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل بشرط أن توافق إسرائيل على الانسحاب الذى نص عليه القرار ٢٤٢. وللأسف، لم ينجح الضغط الأمريكى ولا القرار الدولى الذى صوتت عليه الجمعية العامة فى ١٩٧١ و١٩٧٢ فى إجبار إسرائيل على الانسحاب. وأثناء اجتماع مجلس الأمن الطارئ فى يوليه ١٩٧٣، وافق ١٣ عضواً على هذا القرار دون أن يمتنع أى عضو عن التصويت، و أدان هذا القرار بشدة مواصلة القوات الإسرائيلية احتلال الأراضى، كما عبر عن قلق الأمم المتحدة من عدم تعاون إسرائيل مع الممثل الخاص للأمين العام. إلا أن المندوب الأمريكى استعمل حقه فى الڤيتو، وحينها قضى على أى أمل لتفادى اشتعال الحرب.

فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ (يوم كيپور)، هاجمت ٢٠٠ طائرة مصرية القواعد العسكرية الإسرائيلية فى سيناء. وفى الوقت ذاته شنت الفرق السورية هجومًا منطلقًا من مرتفعات الجولان. ولم يكن الإسرائيليون يتوقعون هذا الهجوم، إلا أن القوات الإسرائيلية صدت تقدم القوات المصرية فى سيناء يوم ١٤ أكتوبر. وعندما أنشأ الإسرائيليون رأس جسر على الضفة الغربية لقناة السويس وحاصروا الجيش المصرى(*)، تم وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر، وتم الاتفاق على هدنة يوم ٢٤. أدت هذه الحرب التى زعزعت ثقة الإسرائيليين، ورفعت من الروح المعنوية للعرب، إلى إعادة طرح متطلبات القرار ٢٤٢ مع القرار ٣٣٨ (٢٢ أكتوبر١٩٧٣) الذى كان ينص على تطبيق بنود القرار ٢٤٢. وفى عام ١٩٧٤، أثناء قمة الرباط، اختارت الدول العربية منظمة التحرير الفلسطينية على أنها الممثل الوحيد والشرعى للشعب الفلسطينى، حيث قام رئيسها «ياسر عرفات» بأول زيارة له للأمم المتحدة فى نوڤمبر ١٩٧٤.

تهويد الأراضى المحتلة

بعد أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية لنهر الأردن وغزة، واصلت مصادرة الممتلكات الفلسطينية الخاصة والعامة؛ وأثبتت الأحداث المتلاحقة أن الحرب كانت مرحلة جديدة من مراحل الاستراتيچية الصهيونية التى تهدف إلى احتلال أرض إسرائيل كما جاءت فى الكتاب المقدس. واتبعت كل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ ١٩٦٧ سياسة الاستحواذ على الأراضى العربية. ومن ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧، وهى الفترة التى تقلد فيها حزب العمل مقاليد الحكم، ضمت إسرائيل القدس الشرقية وثلث أراضى الضفة الغربية.

وسعت مجموعة «جوش إمونيم» [جماعة المؤمنين] أهم مجموعات المستوطنين اليهود - تم تأسيسها عام ١٩٧٤ - إلى استيطان كل أرض إسرائيل. وتم تنشيط عملية

(*) كان هناك حصار متبادل للقوات الإسرائيلية والقوات المصرية فى المواقع النهائية لعمليات ١٩٧٣ - المترجمة.

التهويد مع وصول حكومات الليكود للسلطة من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٤ . وأصبحت سياسة هذه الحركة بعد إجراء بعض التعديلات عليها (خطة دروبلاس) هي السياسة التي تنتهجها الحكومة (بنفنيستي و خياط ١٩٨٨ : ٦٤، ١٠٢). وهدفت تلك السياسة ـ من خلال الاستيطان اليهودي الشامل ـ إلى منع رجوع السيطرة العربية على أي أرض فلسطينية (انظر أرونسون ١٩٨٧، بنفنيستي ١٩٨٤، هاريس ١٩٨٠).

إسرائيل في لبنان

عقب تعزيز المواقف الفلسطينية في لبنان في أواخر الستينيات، سمحت إسرائيل لنفسها بأن تلعب دور الشرطي في المنطقة. وشنت اعتداءات مشينة، مثل الاعتداء على مطار بيروت عام ١٩٦٨، واحتلال جنوب لبنان عام ١٩٧٨ بواسطة ٢٠٠٠٠ جندي يهودي. وقد لقي القرار ٤٢٥ لمجلس الأمن (١٩ مارس ١٩٧٨) الذي كان يفرض على إسرائيل أن توقف جميع عملياتها العسكرية، والانسحاب الفوري من جميع الأراضي اللبنانية، مساندة الرئيس الأمريكي كارتر. وانسحبت إسرائيل بالفعل، إلا أنها أبقت على «منطقة أمن» على حدودها مع لبنان، تمثل حوالي ١٠٪ من أرض لبنان. أما اتفاقيات كامب ديفيد الإسرائيلية ـ المصرية والتي تم إبرامها دون الأخذ برأي الفلسطينيين، فقد أضافت زخمًا لسياسة الاستيطان.

بعد قصف لبنان عام ١٩٨١، واستخدام الاعتداء الذي استهدف «شولومو أرجوف» سفير إسرائيل في بريطانيا (٤ يونيه ١٩٨٢)، شنت الطائرات والمدرعات الإسرائيلية هجومًا على المواقع الفلسطينية في جنوب لبنان وشرق بيروت. وصوت حينها مجلس الأمن على القرار ٥٠٨ الذي كان ينص على وقف الاعتداءات الإسرائيلية. واستهدفت إسرائيل من هذه العمليات استئصال القومية الفلسطينية، وتدمير سلطة منظمة التحرير الفلسطينية (ماك برايد ١٩٨٣ : ٦٥، شاحاك ١٩٩٤ : ١٨ - ١٩). بلغت التقديرات الدنيا للقتلى (١٧,٨٢٥) والجرحى (٣٠,٢٠٣)، وتراوح عدد الفلسطينيين واللبنانيين المشردين ما بين ٥٠٠,٠٠٠ إلى ٨٠٠,٠٠٠. وصرحت اللجنة الدولية للتحقيق بأن إسرائيل اخترقت قوانين الحرب في عدة حالات (ماك برايد ١٩٨٣ : ٣٤ - ٣٥، ٣٨، ٤٠ - ٤٢، ٩٩، ١٠٨ إلخ).

حكومة الائتلاف من أجل الوحدة الوطنية ١٩٨٤ - ١٩٨٨

نشطت أعمال الاستيطان بعد قيام الائتلاف الحكومى من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٨ بين الليكود وحزب العمل. وفى نهاية ١٩٨٨، أدت سياسة مصادرة الأراضى إلى سيطرة اليهود على ٥٢٪ من الضفة الغربية. هذا كما تم إعلان ٤٠٪ من قطاع غزة «أرض الدولة اليهودية»؛ وبالتالى تحت السيطرة اليهودية التامة (مطر ١٩٩٢ : ٤٤٤ - ٤٤٨، انظر أيضًا حلبى ١٩٨٥ من أجل الحصول على تحليل شامل). وفى بداية ١٩٨٨، كان هناك ١١٧ مستوطنة بها ما يزيد على ٦٧٠٠٠ مستوطن على أراض تم مصادرتها من الضفة الغربية، أضف إلى ذلك ثمانى مستوطنات واسعة تشبه الحصون يقيم بها ١٠٠,٠٠٠ مستوطن فى القدس الشرقية المحتلة، أما فى قطاع غزة، فقد أصبح هناك ١٤ مستوطنة بها ٢,٥٠٠ مستوطن. وحتى تلك الفترة، فقد حوالى ربع الفلسطينيين فى الضفة الغربية و قطاع غزة كل أراضيهم أو بعضها (مطر ١٩٩٢ : ٤٤٨).

منذ ١٩٦٧، تم استغلال مصادر المياه فى الضفة الغربية بشكل شبه كامل لصالح اليهود، سواء فى الأراضى المحتلة أو فى أراضى إسرائيل. ومنذ ١٩٨٧، قامت شركة المياه الإسرائيلية «ميكوروت» بحفر أكثر من ٤٠ بئرًا عميقة، وضخت ٤٢ مليون متر مكعب سنويًا من المياه الجوفية فى الضفة الغربية للمستوطنات اليهودية فقط. أما الفلسطينيون، فيضخون فقط ٢٠ مليون متر مكعب من آبارهم الضحلة التى ترجع إلى ما قبل ١٩٦٧. وفى بعض الحالات، قامت الشركة اليهودية بحفر آبار عميقة بقرب المصادر المائية التى يستعملها الفلسطينيون، مما أدى إلى جفافها. وقبل ١٩٦٧، كانت إسرائيل تضخ ثلث احتياجاتها من الماء سنويًا ـ أى ما يعادل ١,٨ مليار متر مكعب ـ من المياه الجوفية التى تقع فى الضفة الغربية. ومنذ تلك الفترة يستغل الإسرائيليون الماء لتلبية احتياجاتهم، وبعد ذلك يوزعون الماء على المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة. وعلى العكس من ذلك، فإنه يتم منع الفلسطينيين من الاستفادة من مواردهم من المياه لتحقيق مطالبهم وبقائهم الاقتصادى (مطر ١٩٩٢ : ٤٥٤).

الانتفاضة

أدى الاحتلال الإسرائيلى إلى موجة من المقاومة لا يمكن تفاديها، أدخلت

مصطلحًا جديدًا فى المعجم الدولى، ألا وهو مصطلح الانتفاضة (Intifada). وكانت هذه الكلمة بداية المواجهة الفلسطينية للاحتلال فى ٨ ديسمبر ١٩٨٧ . وأدت الجهود التى بذلها الإسرائيليون لإبقاء الوضع على ما هو عليه (سياسة الوضع الراهن) إلى صدمة المجتمع الدولى؛ بل وحتى صدمة بعض الإسرائيليين. وقد جعلت الانتفاضة الكنائس، سواء على الأرض المقدسة أو فى الخارج، تهتم بالصراع السياسى فى فلسطين (انظر بريور ١٩٩٠، ١٩٩٣، ١٩٩٦) بل وأيضًا تضامن العالم وتعاطف بشكل كبير مع الفلسطينيين، كما أدان الاحتلال الإسرائيلى. وفى ١٥ نوفمبر ١٩٨٨، أعلن المجلس الوطنى الفلسطينى قيام دولة فلسطين تعيش جنبًا إلى جنب مع دولة إسرائيل. وأكد الرئيس عرفات رسميًا أن منظمة التحرير الفلسطينية تعترف بإسرائيل و أنها تتخلى عن العنف، وتسعى إلى التفاوض، والتوصل إلى تسوية سلمية تعتمد على قرارات الأمم المتحدة.

عملية السلام(*)

تحولت فرحة الفلسطينيين بسبب انعقاد مؤتمر مدريد فى نوفمبر ١٩٩١ إلى اكتئاب لدرجة أنه بحلول أغسطس ١٩٩٣ لم يبق هناك أى فلسطينى يأمل فى تحسن مصير الفلسطينيين وأوضاعهم. وعندما كنتُ أقوم بهذه الدراسة فى القدس، أجبرت الاعتداءات المنظمة والعنيفة للقوات الإسرائيلية على لبنان وعملية «المسئولية - Accountabillty» (٢٥ - ٣١ يوليه ١٩٩٣) ٤٠٠٠٠٠ شخص على الفرار إلى الشمال، وقُتل ١٣٠ شخصًا معظمهم من المدنيين، وألحقت خسائر بالغة بـ ٥٥ مدينة وقرية. وأدت هذه الاعتداءات الرهيبة إلى توحد لبنان بشكل جديد، على الرغم من أن الحرب الأهلية التى بدأت عام ١٩٧٥ كانت تمزقه[1]. وأخيرًا اضطرت إسرائيل إلى

(*) أطلق المفكر الأمريكى اليهودى ناعوم تشومسكى - بأسلوبه الساخر - على عملية السلام اسم: «الفراخ المقلية - Fried Chiken» فهو يرى أن مصطلحه الجديد لا يبعد عما يحدث فى فلسطين أكثر من بعد المصطلح الزائف: عملية السلام، فليس هناك سلام، وليس هناك عملية تحققه - المترجمة.

(١) لم تحترم إسرائيل خلال هذه العمليات مبادئ الحرب وقوانينها، وكان من الممكن ملاحقة المسئولين - خاصة رئيس الوزراء ووزير الدفاع إسحاق رابين، ورئيس أركان حرب الجيش إيهود باراك - بتهمة ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. كما أن الرئيس كلينتون لم يُدنْ هذه الأعمال على الرغم من اعتراف إسرائيل بأن سياستها هى تدمير قرى جنوب لبنان، وإجبار مئات الآلاف على ترك منازلهم.

تنفيذ حل وسط ـ غير مكتوب ـ اقترحه الأمريكيون يقضى بأن يوقف حزب الله إطلاق قذائف الكاتيوشا على شمال إسرائيل. ولعب حزب الله دوراً حيويّا وجوهريّا فى استقبال المرحلين وفى تقديم الخدمات الطبية لهم. وفى هذا الصدد، أصبح حزب الله حركة المقاومة الفعالة الوحيدة فى مواجهة إسرائيل، مما رفع أسهمه لدى الشعب اللبنانى.

وبعد ٢٢ شهراً من الإحباط بسبب عدم حدوث أى تطور من جراء مؤتمر مدريد، هدد الجانب الفلسطينى بمقاطعة الاجتماع العاشر للمناقشات المقررة فى واشنطن فى بداية سپتمبر ١٩٩٣. ووعيًا بالمكتسبات التى حصل عليها أثناء الاجتماعات السرية لأوسلو، عرف «عرفات» كيف يقنع الفلسطينيين بعدم اليأس من المفاوضات واستئنافها لجولة إضافية. وفى نهاية أغسطس، سمحت الاتصالات السرية التى قامت بين الإسرائيليين والفلسطينيين فى أوسلو وفى مدن أوروپية أخرى، باقتراح قرَّب التوصل إلى حل وسط تاريخى. وبناء عليه تكون غزة و أريحا أول من تحصلان على الاستقلال؛ حيث سيحصل الفلسطينيون على الحكم الذاتى لمدة مؤقتة تدوم ٥ سنوات. وبعد ثلاث سنوات سيتم استكمال المحادثات بشأن الوضع الفلسطينى بما فى ذلك مستقبل القدس والمستوطنات ومصير المزاحين (اللاجئين) الفلسطينيين.

أكدت مقدمة اتفاقات أوسلو(إعلان المبادئ) على إرادة الطرفين ورغبتهم «فى وضع حد لعهود من المواجهة والنزاع، والاعتراف بالشرعية والحقوق السياسية المتبادلة وبذل الجهود اللازمة لتحقيق تعايش سلمى يحفظ كرامة الطرفين وأمنهما، وتحقيق اتفاق سلام عادل نهائى وشامل، بالإضافة إلى العفو التاريخى بفضل الاتفاق المبرم». وفى الثالث عشر من سپتمبر ١٩٩٣، فى ساحة البيت الأبيض، أعلنت مصافحة «رابين وعرفات» عن بدء مرحلة جديدة. وأثناء لقائه مع الرئيس الأمريكى« بيل كلينتون» فى الثانى عشر من نوڤمبر، حصل رئيس الوزراء الإسرائيلى «رابين» على بعض الهبات الاقتصادية والتكنولوچية والعسكرية، مع إعادة تأكيد الرئيس الأمريكى«تعهد أمريكا الذى لا يهتز بمساندة إسرائيل وتعزيز أمنها».

إلا أن تأخر إسرائيل فى الانسحاب من غزة ومن أريحا، على الرغم من تحديد الاتفاقيات تاريخ ١٣ ديسمبر على أنه التاريخ النهائى للانسحاب، أدى إلى الشك فى

نوايا إسرائيل الجادة لتحقيق السلام. ويبدو أن القتل الجماعى لتسعة وعشرين مسلمًا فى صلاة الفجر فى مسجد حبرون(المسجد الإبراهيمى) يوم ٢٥ فبراير ١٩٩٤ قد دق المسمار الأخير فى نعش اتفاقيات أوسلو. وتأزمت الأمور أكثر فى بداية أبريل، بسبب هجمات حماس بواسطة كتائبها ـ كتائب عز الدين القسام ـ فى عافولة وحديرة. وبعد شهور من تعثر المفاوضات، تم أخيرًا إبرام اتفاق الحكم الذاتى الفلسطينى فى غزة وأريحا يوم الرابع من مايو فى وثيقة من ٤٥٠ صفحة، وصحب دخول عرفات غزة مظاهرات فى الأول من يوليه.

إلا أن المعارضة الدينية لعملية السلام كانت تتطور. وطلب كبير الحاخامات السابق «شولومو جورين» من العسكريين عدم الإذعان للأوامر التى قد يتلقونها بتفكيك المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة. وتم القبض على حاخام إفرات «شولومو ريسكين» مع مئات المستوطنين الآخرين، حيث طالبوا بالقيام باستفتاء على اتفاقيات أوسلو ٢ (و هى المرحلة الثانية من اتفاقيات أوسلو التى وافق عليها الكنيست فى أكتوبر ١٩٩٥ بفارق صوت واحد). وأثناء تجمع معارض لـ «رابين» أمام سفارة إسرائيل فى لندن ٩ أغسطس ١٩٩٥، وصف رئيس المعبد اليهودى الكبير فى القدس «إسحاق رابين» بأنه يرأس حكومة يهودية نازية.

وبموجب اتفاقيات طابا التى أبرمت فى سبتمبر عام ١٩٩٥، يتعين على إسرائيل أن تنسحب من ست مدن (حوالى ٤٪ من الضفة الغربية) يقطنها ٢٥٠٠٠٠ فلسطينى، وتسيطر السلطة الفلسطينية على الخليل جزئيًا، كما تصبح مسئولة عن النظام العام فى ٤٤٠ قرية فى الضفة الغربية بها ٦٨٪ من الفلسطينيين تشغل ٢٣٪ من مساحة الضفة الغربية. واحتفظت إسرائيل بالسيطرة على ٧٣٪ منها. وأعطت اتفاقيات أوسلو ٢ الحق للسلطة الفلسطينية بالسيطرة الفعلية على ٤٪ من الأرض ومنحتها(*) مسئولية محدودة على ٩٨٪ من سكان الضفة الغربية.

و أثبت هذا الاتفاق، الذى وصفه المنشقون الفلسطينيون بأنه «فاجعة» و «استسلام عن طريق المفاوضات»، عدم توازن الطرفين واختلافهما الشديد، حيث كانت منظمة

(*) وضعت عليها مسئولية ـ المترجمة.

التحرير الفلسطينية غير قادرة و ضعيفة سياسيّا وبدون موارد مالية. ويبقى أن نستكشف هل دشن الحكم الذاتى الذى منحته الاتفاقيات بالفعل« مرحلة جديدة يعيش فيها الشعب الفلسطينى حرّا ويتمتع بالسيادة فى بلده» وفقًا لوعود عرفات. وقضى الانسحاب الإسرائيلى المحدود على الحلم الصهيونى لدولة إسرائيل الكبرى. وبدأ الانسحاب يوم ٢٥ أكتوبر فى جنين(*). وأحدث اغتيال رئيس الوزراء «رابين» على يد يهودى متعصب دينيّا(**) يوم ٤ نوفمبر صدمة عميقة وحزنًا بالغًا لدى أغلبية الإسرائيليين؛ والبعض الآخر أبدى فرحته، لاسيما المستوطنون وأعضاء الجماعات الدينية لدرجة أن بعضهم رقص فى الشوارع(١). وبعد انسحاب القوات من طولكرم ونابلس و قلقيلية و بيت لحم ورام الله فى ديسمبر ١٩٩٥، زار الرئيس عرفات كل مدينة وأكد أنه فى نهاية النفق الذى يؤدى إلى السلام تظهر «المآذن وجدران كنائس القدس». وقد تم استقباله فى بيت لحم، التى قال عنها إنها مكان ميلاد المسيح الفلسطينى، كضيف شرف فى القداس التقليدى الذى يقام فى منتصف الليل. وشبه البطريرك الأرثوذكسى اليونانى «ديودوروس» الأول «عرفات» بالخليفة «عمر بن الخطاب» الذى تم إعطاؤه «مفاتيح القدس» لأنه حمى المسيحيين. وهذه العبارة الواردة فى الصفحة الثامنة من جريدة القدس، ألقت بمحررها فى الحبس لمدة ستة أيام من قبل شرطة «عرفات» [لأنه وضعها فى الصفحة الثامنة وليس الأولى].

وبعد انتظار طويل، جرت الانتخابات الفلسطينية أخيرًا فى ٢٠ يناير ١٩٩٦ على الرغم من مقاطعة المعارضة. وأثبتت المشاركة الواسعة رغبة الفلسطينيين فى إرساء العملية الديموقراطية، حيث صوت ٦٨٪ من الناخبين فى الضفة الغربية بما فى ذلك القدس الشرقية و ٩٠٪ من الناخبين فى غزة أدلوا بأصواتهم. ولم تصل نسبة المشاركة

(*) ثم قاست جنين من اجتياح الجيش الإسرائيلى لها فى مذبحة عام ٢٠٠٢ ـ المترجمة.

(**) برغم موضوعية المؤلف والتزام الحياد والحق، وجرأته فى نشر كتابه ـ وهو قسيس ـ فلم يصف جولد شتين الذى قتل تسعة وعشرين مصليًا، وأصاب أكثر من ذلك، وكذلك لم يصف قاتل رابين، بالإرهاب، وكأن هذا المصطلح حكر على المسلمين ـ المترجمة.

(١) كتب كبير الحاخامات الإنجليز السابق اللورد چاكوبوڤيست إلى رابين لمساندته فى جهوده من أجل عملية السلام قائلاً: «وبما أننى واحد من الحاخامات التقليديين القليلين الذين يساندون جهودكم من أجل السلام، أظن أننى قد أسهم بتهدئة عداء أهم معارضيك: المستوطنين والجماعات الدينية» (Jewish Chronicle، ١٨ أغسطس ١٩٩٥، ص ١٧).

فى القدس الشرقية إلا إلى ٤٠٪ بسبب تخويف الإسرائيليين للفلسطينيين من الإدلاء بأصواتهم. وقد حصل عرفات على ٨٨٪ من الأصوات فى الانتخابات الرئاسية، بينما حصل حزبه فتح على ٥٠ من ٨٨ مقعدًا فى المجلس. هذا وتم انتخاب ١٦ عضوًا آخرين من فتح، من المعارضين لقائمة عرفات. و فورًا تحول زخم الانتخابات إلى أعمال عنف؛ حيث انفجرت فى ٢٥ فبراير حافلة من جراء هجوم انتحارى فى القدس، أودى بحياة ٢٤ شخصًا من بينهم فلسطينيون، وفى أماكن أخرى تم التأثير سلبًا على عملية السلام. وأنزلت إسرائيل هذه المرة عقابًا جماعيّا هائلاً فى الأراضى المحتلة بمساعدة الشرطة الفلسطينية. وأكد إغلاق غزة والمدن و قرى الضفة الغربية مخاوف الذين كانوا يعتبرون أن اتفاقيات أوسلو٢ لم تكن إلا وسيلة لجأ إليها الصهاينة لمحاصرة السكان الأصليين فى مناطق مغلقة مثل بانتوستانات جنوب أفريقيا ومجمعات أمريكا اللاتينية [للهنود].

اندلع العنف فى جنوب لبنان والحدود الشمالية لإسرائيل، وبلغ ذروته مع عملية «عناقيد الغضب» التى شنها رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك «بيريز» يوم ١١ أبريل ١٩٩٦، وبعد ستة عشر يومًا من القصف العنيف، قُدر عدد القتلى اللبنانيين بأكثر من ١٥٠ مدنيّا ونصف مليون من المُزاحين، كما تم تدمير البنية التحتية المدنية لجنوب لبنان. وأدى «القصف الجراحى ـ Surgical Strikes» على أهداف حزب الله بواسطة قنابل ذكية إلى قتل أكثر من ١٠٠ مدنى مُزاح قرب مقر قيادة قوات الأمم المتحدة فى قانا يوم ١٨ أبريل. وتعدت هذه الأعمال الحدود المسموح بها حتى بالنسبة للذين كانوا فى الغرب يجدون الأعذار بشكل سهل للغاية لتبرير أعمال إسرائيل(١). واخترق هجوم إسرائيل على أهداف أغلبها من المدنيين معاهدة چينيڤ لعام ١٩٤٩ التى تنص على أن مرتكبى مثل هذه الأفعال يمثلون أمام المحاكم بتهمة جرائم ضد الإنسانية(٢). وجسدت

(١) يالسخرية القدر، تم إبلاغى بهذه المأساة أثناء حفل أقيم فى لندن فى إطار مؤتمر عن مئوية كتاب هيرتزل «الدولة اليهودية».

(٢) أثناء الاعتداء الإسرائيلى (١٥ أبريل)، مثل أحد اللاجئين الفلسطينيين يبلغ عمره ٨٥ عامًا أمام محكمة بريطانية بتهمة قتل ثلاثة يهود خلال شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢. وأدلى ١٦ شاهدًا جاءوا من إسرائيل وسيبريا والكاپ و الولايات المتحدة الأمريكية بشهادتهم. وأقر مسئول كبير هذه المحاكمة باسم مبدأ تطبيق العدالة بدون الأخذ فى الاعتبار الزمن الذى مر منذ ارتكاب الجريمة.

عمليات القتل فى لبنان الحسابات الخاطئة للحاصل على جائزة نوبل بطريقة لا تنسى (*).

وبالفعل، جَمّعَت عملية عناقيد الغضب الجماعات اللبنانية المختلفة و توحدت بشكل جيد ضد إسرائيل، حيث أجبرت إسرائيل على الإذعان للقرار ٤٢٥ للأمم المتحدة الذى يقضى بانسحاب الإسرائيليين من جنوب لبنان. وكشفت مساندة «كلينتون» ووزير خارجيته «كريستوفر» التى لا تهتز لإسرائيل عن عدم احترام الإدارة الأمريكية للقوانين الدولية والسلوك الحضارى عندما يتعلق الأمر بسياستها الخارجية، وعندما يقترب موعد الانتخابات الرئاسية. لم يؤت غزو لبنان ثماره لـ «بيريز»، حيث تم انتخاب «بنيامين نتانياهو» فى انتخابات ٢٩ مايو بدلاً منه. أما «كلينتون» فقد تم انتخابه لفترة ثانية.

وأثناء المفاوضات بين إسرائيل وفلسطين، والتى كان من شأنها أن تتطرق لنقاط هامة تسمح بإرساء السلام بشكل نهائى، وأن تأخذ بعين الاعتبار متطلبات العدالة واحترام القوانين الدولية و معاهدات حقوق الإنسان، ألقى عدم التوازن بين الطرفين ثقله. فالمفاوضات بين طرفين غير متكافئين، و هناك احتمال بسيط جداً لأن تقبل إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة وأن تحترم حقوق الشعب الفلسطينى مثلما هو منصوص عليها فى معاهدات حقوق الإنسان. ولن يتم تصحيح الاضطهاد الذى مارسته وتمارسه الصهيونية على السكان الفلسطينيين على الأقل فى المستقبل القريب. ويكمن الحل العادل للمشكلة فى تراجع الطموح الصهيونى وفى التخلى عن أيديولوچيته؛ وهذا ما يعنى إمكانية رجوع الفلسطينيين المرحلين لديارهم، أو الحصول على تعويضات عادلة وفقًا للقانون الدولى. وهناك احتمال ضعيف جداً لأن تعترف الدولة الإسرائيلية بالقمع الذى مارسته الصهيونية على الفلسطينيين، و تطلب منهم العفو، وأن تمنحهم تعويضات عادلة. وبلا شك يمكن أن نجد حلاً پرجماتيًا مبنيًا على حل وسط يرضى الطرفين، ولكن سيتعين على العدالة أن تصبر بعض الوقت قبل أن يتم تطبيقها.

(*) فى الواقع، نسى المجتمع الدولى ذلك لبيريز، بل نسيته حتى مصر، التى تكرر حضوره إليه ضيفًا معززًا مكرمًا، حتى وهو خارج الحكومة ـ المترجمة.

البعد الدينى

يدفعنا قتل ٢٩ مصليًا بالمسجد الإبراهيمى فى الخليل على يد مستوطن يهودى متعصب دينيّا (٢٥ فبراير ١٩٩٤)[١] واغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى رابين (٤ نوڤمبر ١٩٩٥) من قبل يهودى متعصب ادعى أنه يتصرف باسم الله، إلى التحدث عن البعد الدينى للصهيونية.

كان «يجال أمير» ابن أحد الحاخامات التقليديين، وكان طالبًا فى المعهد العالى لدراسات التوراة فى جامعة بار إيلان التى أنشأها الحزب الوطنى الدينى. ومن بين الكتب التى تم العثور عليها فى غرفته، نذكر كتابًا تم تحريره لتمجيد جولدشتين (Jewish Chronicle ١٠ نوڤمبر ١٩٩٥، ص٣). وأثناء انعقاد اجتماع سبق اغتيال «رابين»، كان زعيم الليكود «بنيامين نتانياهو» يقف على المنصة أمام تجمع المعارضين لـ «رابين»، الذى وصفوه بأنه «هتلر»، وهتفوا صارخين: «رابين» خائن. وأكد العديد من الحاخامات، على سبيل المثال «موشيه تندلر» و«أبراهام هيشت» من نيويورك أنه لن يتم التخلى عن بوصة واحدة من الأراضى التى تم احتلالها (هكذا قالوا) وأضاف «هيشت» أن أى زعيم يهودى يسلم الأرض اليهودية يجب قتله (هرتزبرج ١٩٩٦ : ٣٧). وسنرى أن مثل هذه الآراء المتشددة تنبثق من بعض التفسيرات الخاطئة لتراث الأرض فى الكتاب المقدس.

على الرغم من أن وعد الله بهبة الأرض لإبراهيم و ذريته الوارد فى الكتاب المقدس يشكل عنصرًا خاصّا فى تاريخ الإنسانية، إلا أن جميع الأجيال اليهودية تبنوه؛ حيث يتم تأكيده يوميّا فى الصلوات. ولكن لدى يهود الشتات، أصبح «جبل صهيون» مفهومًا ميتافيزيقيّا. واكتشف الحاخامات غير الهيابين لسقوط دولتهم أنه يمكن حمل فلسطين معهم، وبفضل شبكة المعاهد اليهودية، تصوروا أن فلسطين يجب أن تعيش فى إسرائيل إذا لم تستطع إسرائيل أن تعيش فى فلسطين(زانجويل ١٩٣٧ : ٣ - ٤).

فى أدب القابلاه[*] أرض إسرائيل والتوراة والله شىء واحد. أدت الوحدة الروحية

(١) تبدو مقبرة باروخ جولدشتين «الشهيد الصالح» كحديقة ذكريات فى حديقة كاهان فى كريات أربا. وبها مكان معد لصلاة الحجاج إلى قبر الشهيد جولدشتين وإشعال شموع الذكرى. ويقوم مؤيدوه بتقبيل قبره والصلاة عليه. وتحدث الحاخام دوف ليور إلى ابن جولدشتين بمناسبة ذكرى بلوغه سن الرجولة قائلاً: «يعقوف يائير، سر على خطى والدك، كان صالحًا وبطلاً عظيمًا» (تقرير القدس، ١٢ ديسمبر ١٩٩٦، ص. ١٠).

(*) القابلاه: التأويلات الصوفية اليهودية ـ المترجمة.

للشعب والأرض إلى قبول فكرة الفصل المادى (الجسدى) بين الأرض والشعب حتى نهاية الأزمنة (انظر شوايد ١٩٨٧ : ٥٣٩).

وخلال العصور الحديثة، رأى اليهود الذين اختاروا التحرر واعتبروا البلد الذى يعيشون فيه مماثلاً لما اعتبره أجدادهم صهيون، رمزًا للتحرر العالمى، ورفضوا فكرة إعادة تأسيس السيادة اليهودية. ولكن رفضت الأقلية التقليدية التحرر، واحتفظت بفكرة أن النفى مؤقت حتى عودة المسيا. والصهاينة من جانبهم يطمحون فى التحرر والمساواة لليهود؛ إلا أنهم أصروا على أن هذا الأمر لن يتحقق إلا فى إطار دولة يهودية مستقلة فى أى مكان فى العالم، مثل أوغندا أو شمال سيناء أو فى الأرچنتين (لاكير ١٩٧٢ : ١٥٧ - ١٥٨، ٢٤٧ - ٤٢٨) أو الأفضل فى صهيون.

تبدو العلاقة الوثيقة بين ما هو دنيوى ودينى فى الاسم العبرى لـ (الصندوق) الوطنى اليهودى ـ (Keren Kayemet L'yisrael)(*). ففى قداس «سيدو» صباح كل يوم، بعد الصلوات التقليدية، تنشط قراءة الإصحاح ١٣ : ١-١٠ من سفر الخروج ذكرى التحرر من مصر، و تدعو كل شخص ـ حتى اليوم ـ إلى اعتبار نفسه فى رحلة من العبودية إلى الحرية:

> **اليوم فى شهر أبيب (أى فى شهر آذار ـ مارس) أنتم خارجون، لذلك عندما يدخلكم الرب أرض الكنعانيين والحثيين و الأموريين والحويين واليبوسيين، التى تفيض لبنًا وعسلاً، والتى أقسم لآبائكم أن يهبكم إياها، تمارسون هذه الفريضة فى هذا الشهر. . . . . . . فى ذلك اليوم تقول لابنك: إننى أمارس هذا من أجل ما صنعه الرب لى، حين أخرجنى من مصر (الخروج ١٣ : ٤ ـ ٩).**

ويواصل النص:

> **ويكون حين يدخلك الرب إلى أرض الكنعانيين ، كما أقسم لك ولآبائك أن يهبك إياها، أنك تفرز للرب كل ذكر فاتح رحم. . . . إنه بيد قديرة أخرجنا**

(*) كانت مهمته جمع الأموال من يهود الشتات لشراء أراض فلسطينية وبناء مستوطنات إسرائيلية عليها. واختصاره بالإنجليزية هو (JNF).

الرب من ديار العبودية . . . لذلك أنا أقرب للرب الذكور من كل فاتح رحم . . . فتكون هذه الفريضة بمثابة علامة على يدك ورمز على جبهتك ، لأن الرب قد أخرجنا بيد قديرة من مصر (الخروج ١٣ : ١١ - ١٦).

ثم تتبع ذلك بركات دراسة التوراة ، وبركات الكهنة من نسل هارون (العدد ٦ : ٢٤ - ٢٦) . ثم نقرأ من التلمود البابلى :

ها هى الوصايا التى يتمتع الإنسان بثمارها فى هذا العالم ، ولكنها تبقى ليتمتع بها ثانيًا فى العالم القادم . إنها تكريم الأب والأم ، والقيام بأعمال الخير ، و الحضور الدائم للدراسة [دراسة التوراة] صباحًا ومساءً ، وإكرام الضيف وزيارة المرضى ، وتقديم المهر للزوجة ، ودفن الميت ، والصلاة الخاشعة ، وإرساء السلام بين البشر ، ودراسة التوراة تساوى كل ذلك .

يستدعى الاسم العبرى للصندوق الوطنى اليهودى الأسطورة المؤسسة : التحرر من مصر ، ودخول أرض الوعد المأهولة بالسكان . وهو يتوسل بفكرة تضحية اليهود لتقديم الشكر ، بتقديم أول مولود من الماشية [بدلاً من أول مولود ذكر فى كل عائلة يهودية] . وإذا كانت الهبة المقدسة مقدمة إلى يهوه فى الماضى ، فإنه يجب اليوم تقديمها إلى الصندوق الوطنى اليهودى كتضحية تساوى الوصايا الأخرى أو تعدلها ، والتى بالإضافة إلى الفوائد والمصالح التى يستفاد منها فى هذه الحياة ، سيُجزى عليها فى العالم الآخر .

فى بادئ الأمر ، كانت فلسطين تعتبر أرضًا خالية من السكان ، إلا أنه ابتداء من أول موجات الهجرة ، عندما واجه المهاجرون الصعوبات كان عليهم أن يعلموا أن تلك الأرض كان يقطنها أكثر من نصف مليون من السكان الأصليين منذ القرن التاسع عشر (أبو لغد ١٩٨٧ : ١٤٠) . ووفقًا للقانون العثمانى الخاص بملكية الأرض لعام ١٨٥٨ ، يجب تسجيل أية أرض باسم مالك فردى ، إلا أنه كان يمكن التلاعب بهذه القوانين من قبل الملاك الغائبين . ولكن الفلاحين الذين كانوا يزرعون أرضهم اكتسبوا حس الملكية ، ولم يدركوا أن موقفهم كان ضعيفًا إلا عندما «تم بيع أراضيهم إلى اليهود بدون علمهم» (انظر خاليدى ١٨٩٨ : ٢٢١ - ٢٢٤) . هذا فضلاً عن أن سعر الأرض

أصبح مرتفعًا، وازداد ارتفاعه مع زيادة هجرة اليهود لفلسطين، وحتى قطع الأرض الجدباء كانت مملوكة (للسلطان وفيما بعد للتاج الملكى). وفهم «زانجويل» فوراً المشكلة وحلها طبقًا لـ «الكتاب المقدس»:

> **هناك حقيقة يصعب على الصهيونى أن يصرف نظره عنها، وهى أن فلسطين مأهولة فعلاً بالسكان... وبالتالى هناك احتمالان: إما أن نطردهم بالسيف مثلما فعل أسلافنا، وإما أن نواجه مشكلة التعايش مع شعب أجنبى كبير، أغلبه من المحمديين الذين تعودوا على أن يزدرونا منذ عدة قرون (أبريل ١٩٠٥، ١٩٣٧: ٢٠١).**

وبما أنه صاحب الهجرة اليهودية بداية الانزعاج السياسى العربى، كان حتميّا أن تصطدم المصالح.

لم يكن هناك جدل كثير داخل الحركة السياسية الصهيونية بشأن حق اليهود فى الاستقرار فى فلسطين المأهولة بالسكان. وبينما كنا نتوقع بعض المناقشات حول الحق الطبيعى والحق التاريخى و الحق الأخلاقى أو الحق الدينى، اكتفى النقاش بالحاجة إلى «القومية» مع افتراض أن الحاجة تؤسس الحق.

ونتوصل هنا إلى بعض التساؤلات الصعبة: هل ستكون الدولة وطنًا لشعب علمانى، أو الأرض المقدسة التى يجب فيها ممارسة الطقوس الدينية اليهودية؟ هل كان مشروعًا توقع المبادرة الإلهية واللجوء إلى الوسائل العلمانية لإنشاء وطن قومى؟ وفى علم الأخرويات اليهودى، هناك نزاع بين الخلاص الذي يأتى بمبادرة من الله، وذلك الذى يسهله التدخل الإنسانى. ويكمن خطر تخليص إسرائيل نفسها بنفسها فى أنه عمل علمانى على أساس طموح سياسى، فى الاغتراب عن التراث الدينى. ونلاحظ أن هذا النزاع بين العلمانى والدينى مستمر فى إسرائيل حتى اليوم.

التمسك بحرفية الكتاب و التأويلات السياسية

يصعب أن نقيِّم ـ بدقة ـ الدور الذى لعبه رجال الدين اليهود واستناد الصهيونية على الكتاب المقدس فى نشر أيديولوچيتها. ومنذ بداياتها، لم تكتف المؤسسة الدينية بعدم

الاعتراف بالصهيونية السياسية، بل عارضتها بشدة. وكما نعلم فقد تغير اللاهوت التقليدى بشكل مفاجئ، وانضم إلى الصهيونية العلمانية والسياسية. وفى هذا السياق الجديد، أمد الرجوع إلى تراث الكتابات المقدسة وتأويله فى المشناه والتلمود وغيرها فى اللاهوت اليهودى، الصهيونية العلمانية بكل الحجج اللاهوتية الكافية لتبرير الاستيطان فى فلسطين، تأسيساً على تراث أقدم من القومية والاستعمار الأوروبى.

يعد الحاخام «أفراهام إسحاق كوك» (هاراف أو راف ١٨٦٥ - ١٩٣٥) - الذى سيصبح أول أشكينازى يرأس الحاخامات فى فلسطين ـ الشخصية المحورية لهذا التحول الرئيسى فى التأويل التقليدى لليهودية. وكانت المهمة أمامه صعبة. و باستثناء الحاخامات المبكرين «ألكالاى» و«كاليشر» وفيما بعد أعضاء الجناح الدينى لحركة «Hovevei Zion» مثل «شموئيل موهيليفر» و«إسحاق راينز» و«يهيل مايكل باينز» (أفينيرى١٩٨١ : ١٨٧)، فكل الحركة اليهودية التقليدية والإصلاحية كانت تعارض الصهيونية. كان أعضاء حركة التقوى، الذين شكلوا سكان المستوطنات اليهودية القديمة، يعارضون بشدة العلمانيين الذين كانوا يخرقون التوراة بانتظام، حين كانوا يهدفون إلى تحقيق خلاص اليهود بطرق علمانية. وبالنسبة للصهاينة (للقادمين الجدد)، لم يكن هؤلاء التقويون إلا متطفلين منحطين عُمْيًا عن رؤية التحرير اليهودى. وقد واجه «راف كوك» نقداً شديداً من أشهر الحاخامات (بن صهيون بوكسر فى كوك ١٩٧٩ : ١٠)؛ لأنه أبدى مساندته للعلمانيين الذين يحتقرون قداسة التراث. إن الجمع بين الحركة السياسية الصهيونية والتقليد اليهودى ما هو إلا أمر محفوف بالمخاطر.

وتعد كتابات «راف كوك» وتعاليمه من المبادرات الأولى المنظمة لإدماج الفكر الدينى التقليدى والسلبى [فيما يخص قدوم المسيا]، فى تطبيق علمانى عدائى حديث للصهيونية. حيث أدى هذا إلى نشأة الصهيونية، التى تجمع بين الدين والقومية[١]. وأثبت «راف كوك» قدرة استثنائية عندما جمع العديد من التقاليد اليهودية فى كل متكامل، حيث اقترح تجديد ما هو قديم، وتقديس ما هو حديث. وحرصاً منه على إيجاد «بريق الأمل المقدس» فى أية أيديولوچية يهودية، كان يعتبر الصهيونية العلمانية

(١) انظر كوك ١٩٧٩ : ٣٠٩ - ٣٩٢ - وكثير من كتاباته لم تنشر إلا بعد وفاته عام ١٩٣٥.

أداة من الله للتمهيد للتحرير والتجديد عند قدوم المسيا، ليس فقط لليهود بل وأيضًا للبشرية جمعاء (بمعنى النوع البشرى فى جسد واحد وروح واحدة) وهذه الفكرة تشكل عاملاً أساسيًا فى لاهوته، يتجاهله تمامًا حواريوه: «ليس من الممكن أن لا نحب جميع المخلوقات لأن هناك نورًا يلمع من كل هذه المخلوقات وكل مخلوق من هذه المخلوقات يبرز جمال يهوه». «يحب البر والعدل. ورحمته تغمر الأرض» (المزمور ٣٣: ٥) (المبادئ الأخلاقية: الحب، كوك ١٩٧٩: ١٣٥ فصل ٣). ويتطور كل التاريخ الإنسانى بشكل حتمى نحو كمال مملكة الله؛ وحتى ما هو علمانى له شرارة مما هو مقدس، فأى شيء ما هو إلا قشرة خارجية، داخلها جوهر إلهى.

إلا أنه عند مجيئه إلى فلسطين فى عام ١٩٠٤، لم تلق آراؤه الدينية حماسًا. ووفقًا لرواد الصهيونية، فإن زمن التدين التقليدى للجيتوهات قد ولى.

أما بالنسبة للمؤسسة الدينية التقليدية، فهى ترى أن الصهيونية العلمانية كانت مرتبطة بالأرض بشدة لدرجة أنها لم تعد ترى السماء: «كانوا يرفضون الرجوع إلى تعاليم الله». فقد ألهاهم تركيزهم على القوة والمجد عما هو مقدس وإلهى فى كل شيء حولنا (انظر يارون ١٩٩١: ٢١٦).

يرى «راف كوك» أن تطبيق خطة الله كانت مرهونة بوحدة الشعب اليهودى، وليس فقط بوحدة التقليديين. وفى تلك الفترة، كانت الطاقة المحركة الإلهية فى ذروتها فى ثورة رواد الصهيونية العلمانيين، وإذا كانت اليوتوبيا العلمانية هرطقة فى عيون المؤسسة التقليدية، فقد كانت مصدرًا للتجديد عند «كوك».

جمع فكر «كوك» اليهودى بين التقليدية والقومية الصهيونية و تحرر عصر التنوير، على الرغم من أن دفاعه عن قيم عصر التنوير لم يؤثر فى تلاميذه. وأثبتت التقليدية الدينية جفافها، بينما لم تكْف القومية - مثلها فى ذلك مثل أى نظرة ضيقة - إلا لشريحة من الحياة، وليس لكل الحياة. ولم تكن الصهيونية مذهبًا جديدًا، وإنما وسيلة منذ القدم لتحقيق المثالية وهى الاستيطان على الأرض بهدف تطبيق التعاليم اليهودية، الذى يعد شكلاً من أشكال التعجيل بالتحرير الإلهى. الرجوع إلى صهيون واجب فورى على كل يهودى، وليس فقط فرضية مسيانية متروكة لتدبير الله؛ فهدف «كوك» هو القدس الأرضية وليس فقط القدس السماوية. ويرى «كوك» أن العلاقة بين الله والأرض لها

أصل إلهى «تظل طبيعتنا الداخلية التى لا تتغير ـ قلوبنا وأرواحنا ـ ملتزمة بشدة بالأرض المقدسة . . أرض إسرائيل . . مما يشكل الأساس للرسالة الإلهية للشعب اليهودى . ولا يمكن أن يحقق أى فرد يهودى وجوده إلا فى إسرائيل . وستشع عبقرية إسرائيل الإلهية وتضىء العالم بأكمله عندما تجتمع كل الأمة جسديًا وروحيًا بالأرض . ويعد إعادة إقامة إسرائيل فى موطنها شرطًا لاكتمال الطهارة اليهودية . ويطبق الصندوق اليهودى القومى بعمله فى استعادة أراضى إسرائيل من الأغيار دوره فى الأمر الإلهى فى «فتح أرض إسرائيل» (يارون ١٩٩١ : ٢٠٨-٢١٢) .

وزعم الحاخام «كوك» ، وفقًا لنظرته المسيانية القبالاية الفريدة ـ والتى تحجب أكثر مما تكشف – أن الله بعث بالتحرير من خلال إلهام «بلفور» بإصدار إعلانه ، الذى عكس فجر الخلاص (يارون ١٩٩١ : ٢٢٦)[١] . لم يكن من الممكن فصل الممارسات العملية عن الطموحات الروحية ، كذلك كان النشاط الاجتماعى والباطنى ذا معنًى دينى ؛ حيث كان العمل بشكل نشط يشكل أرضية سفلية لاستدعاء النعمة المسيانية من أعلى (هرتزبرج ١٩٩٦ : ٣٩) . وبينما كان الصهاينة المتدينون مثل «أحد هاعام» يركزون على البعد الدينى للعودة ، و الصهاينة العلمانيون مثل «هيرتزل» يوضحون البعد السياسى ، كان «راف كوك» يبحث عن نتيجة يزعم من خلالها أنه يمكن تداخل الأبعاد السياسية والميتافيزيقية فى دولة واحدة . وحتى الملحدون وأنصار الصهيونية العلمانية يعكسون المقدس عندما يتشربون روح إسرائيل (يارون ١٩٩١ : ٢٠٣) .

وحتى إن كان العلمانيون يستوحون أفكارهم من القومية والاشتراكية الأوروبية ، من وجهة نظر عالمية موضوعية ، فإن روح أعمالهم مستوحاة من الإرادة الإلهية التى يخفيها الحافز العلمانى الظاهر . وحتى إن أرادوا أن ينفوا نهائيًا قدوم المسيا مرة أخرى ، فإن أعمالهم كانت تعجل بقدومه دون أن يعلموا ذلك ؛ حيث كانوا يطبقون الخطة الإلهية . وكان يتعين على اليهودية الدينية أن تتخلل القومية العلمانية الملحدة إلى البريق الإلهى فى قلب الصهيونية . فروح الله هى روح إسرائيل (القومية اليهودية) .

(١) بعد الإعلان عن وعد بلفور ، كتب كوك للورد روتشيلد وأكد خلال لقائه فى لندن : «لم آت لأشكر إنجلترا ، وإنما لأهنئها لأن الله اختارها لتكون مصدر هذا الإعلان للشعب الإسرائيلى » (يارون ١٩٩١ : ٣١٨ هامش ١٢) .

وأثار مثل هذا الالتحام بين العلماني و الديني معارضة قوية لدى الذين لم يستطيعوا أن يقبلوا أن القومية الصهيونية تعد تعبيرًا كافيًا عن إحساس الأمة اليهودية بأنها مُشبعة بالمقدس. في بادئ الأمر، قام بعض الحاخامات بنقد رواد الصهاينة بشكل علني، لاسيما رواد الموجة الثانية المتأثرين بالثورة الاشتراكية في روسيا. إذ بدا للآخرين أن الصهيونية قد تخلت عن جذورها الدينية اليهودية، عندما بحثت عن التطبيع بدلاً من التفرد والتميز المناسب لشعب مُشبع بالألوهية، فقد استطاعت رؤية «راف كوك» أن تتخلل الضباب العلماني الذي ألقى بظلاله، والأحجبة المتعددة التي غطت القيم الجوهرية للتقاليد اليهودية.

وبما أنه كان رئيس الحاخامات في القدس وفلسطين لمدة ١٦ عامًا حتى وفاته عام ١٩٣٥، فلقد استغل «راف كوك» الفرص الكثيرة التي لاحت له لنشر نظرته الخاصة بشأن الباطنية السياسية في الخطاب الصهيوني. وكما سنرى، فإن كتاباته العديدة وإنشاءه لمركز الحاخامات[١]، لعبت دورًا مهمًّا في نهضة صهيونية سياسية دينية حتى اليوم.

ولم تتناول مقتطفات كتاباته التي تم نشرها بشكل واسع، تجديد إسرائيل على أرض كان اليهود فيها أقلية وكان فيها سكان أصليون، وعلى ضوء ما جرى بعد ١٣ عامًا من وفاته من أعمال وحشية خلال التحقيق الجزئي لحلم الصهيونية العلمانية في ١٩٤٨-١٩٤٩، وفي الظلم الذي أوقعه حواريوه، وما زالوا يوقعونه بالسكان الأصليين، والذي ينبع من حماستهم الدينية، والذي صدم البشر العاديين بقسوته، يتساءل المرء عن ثقة الحاخام في تحرك التاريخ نحو مملكة السماء، وربما أنقذت وفاته قبل البداية الأولى للعصر المسياني عام ١٩٤٨، سمعته كروحاني وفيلسوف وقديس.

دولة إسرائيل

أكد إعلان إسرائيل بشأن «قيام الدولة اليهودية» أنه ستكون هناك علاقة وثيقة بين

(١) أسس مركز الحاخامات عام ١٩٢١ كمؤسسة تخدم كل الشعب اليهودي، ويتم فيه تدريس تعاليم اليهودية بما في ذلك الهالاكاه، ودراسات الكتاب المقدس والتاريخ اليهودي، وأرض إسرائيل والفلسفة اليهودية والعلوم وكذلك الأدب، في دورات مدتها ست سنوات (يارون ١٩٩١ : ١٧٧-٧٩).

الحياة الدينية و الحياة السياسية ، وأن الأيديولوچيات التى تستند على مبادئ دينية ستميز الخطاب السياسى بالمعنى الواسع والشامل . وقد حظيت فكرة الرجوع إلى الأهمية التأسيسية للتوراة بدعم واسع حتى بين اليهود الملحدين(١) ، ولكن لم تعد القيم الدينية خاصة فقط بالأحزاب السياسية (حصلوا على ٢٣ مقعداً فى الكنيست من ١٢٠ فى ١٩٩٦) . وفى ما يخص بعض المسائل الأساسية مثل مسألة الأرض ، تتعدى الموافقة إطار الأحزاب بشكل يعتمد على مذهب «كوك» الذى يجمع بين العلمانى والمقدس . ومن مميزات السياسة الإسرائيلية قدرة المجموعات غير البرلمانية على التأثير فى المسار السياسى .

هذا كما أن النظام الانتخابى فى إسرائيل يعطى لأيديولوچيات الأقلية تأثيراً أكبر من حجمها ، وأى حزب أو قائمة انتخابية تحصل على ٥ , ١٪ من الأصوات لها الحق فى التمثيل فى الكنيست بالنسبة التى حصلت عليها . ويؤدى هذا النظام إلى انتشار الأحزاب وتعددها ، والتى بفضل عدد ضئيل من المقاعد ، يصبح لها وزنها على الساحة السياسية بين ١٢٠ عضواً فى الكنيست . وفى انتخابات مايو ١٩٩٦ ، كان هناك ٢٠ قائمة ، حصلت ١١ قائمة منها على مقاعد ، بينها ٥ قوائم لم تحصل إلا على خمسة مقاعد . وبما أنه لم يحصل أبدًا أى حزب على الأغلبية المطلقة ، تعين على كل رؤساء الوزراء أن ينشئوا ائتلافات ، وفى كل مرة مع أحزاب دينية . وصوت حوالى ٩٠٪ من أنصار الأحزاب الدينية وأتباعها لصالح «بنيامين نتانياهو» الذى تم انتخابه رئيس وزراء بفارق ضعيف للغاية ، واستطاع أن يشكل حكومة ائتلاف تتكون من ١٩ عضواً ينتمون

---

(١) كان بن جوريون يعقد بشكل منتظم «حلقة رئيس الوزراء لدراسة الكتاب المقدس» . وكان ينضم إلى هذه الحلقة زلمان شازار الذى كان وقتها رئيسًا لدولة لإسرائيل . وكان خطابه المقدس الذى ألقاه فى نهالال يوم ٢٠ يوليه ١٩٦٤ والذى كان يحمل عنوان « الكتاب المقدس والشعب اليهودى» يستعمل بشكل واسع نصوص الكتاب المقدس وخاصة النصوص التى تشير إلى استعادة الأرض . وعندما يشير إلى أنبياء اليهود وحرصهم على تطبيق العدالة ، فإنه لا يُلمح نهائيًا إلى الأوامر التى تدعو لسلب الكنعانيين ممتلكاتهم ، ولا يشير إلى أسطورة يشوع ، ولا للتقاليد العنصرية التى تحض على كراهية الأجانب والدعوة إلى القتل باسم الله ، والمرة الوحيدة التى ذكر فيها الفلسطينيين ، هى تلك التى كان يريد أن يثبت فيها أن العالم أجمع يحترم إسرائيل وينظر إليها بإعجاب بينما : «لم يستوعب بعد جيراننا العرب وجودنا السلمى ، ويؤكد زعماؤهم رغبتهم فى تدميرنا» (١٩٧٢ : ٢٩٤) . انظر أيضًا موشيه ديان : العيش مع الكتاب المقدس (١٩٧٨) .

لحزب شاس السفاردى، وللأحزاب الدينية القومية(NRP)، مع تأييد أربعة أعضاء من حزب «يهودية التوراه المتحدة ـ United Torah Judaism» وتقلد أعضاء حزب شاس و(NRP) فى هذه الحكومة مناصب مهمة فى وزارات التعليم و الثقافة و العمل والداخلية، وشهدوا مشاركة واسعة فى عدة لجان فى الكنيست. وفى المقابل، تستغنى الأحزاب الدينية عن جزء من أيديولوچيتها فى حل وسط مع الأيديولوچيات العلمانية لاعتبارات ترتبط بالمصالح والظروف. وفيما يلى سأدرس بعض الطرق التى عن طريقها تخللت قيم التوراة المجتمع الإسرائيلى.

اليمين الصهيونى المتطرف

يعنى اليمين المتطرف أو اليمين الراديكالى فى إسرائيل، تلك الجماعات التى تهدف إلى إقامة دولة إسرائيل الكبرى التى تتعدى الحدود التى رسمتها هدنة ١٩٤٩. وبالنسبة للبعض، يعنى هذا الأمر ضم الأراضى المحتلة، ولكن البعض الآخر له أهداف فى ضفة نهر الأردن الشرقية أيضًا. يبرز الدين والتوراة بشكل واضح فى هذه الأيديولوچية التى تتفق مع أيديولوچية غلاة القوميين فى كراهية الأغيار، وأيضًا تتفق فى معظم الأحيان فى استخدام العنف والوسائل الفاشية لتحقيق أهدافها الدينية السياسية. وينتمى كل من «جوش إمونيم» و«تحيا تزوميت» و «موراشا» و«مولديت» و«الكاخ»(١) ـ التى أصبحت مؤخراً حركة غير قانونية ـ إلى الحركات التى تهدف أساسًا إلى إقامة إسرائيل الكبرى. وكانت حركة «كاخ» الأكثر تطرفًا فى دفاعها عن سياسة كراهية الأجانب الواضحة والتى اعتمدت فيها على التوراة، و اتضح أن مجموعة «جوش إمونيم» المجموعة الأكثر نفوذًا.

ومن أهم مميزات الحياة السياسية الإسرائيلية الحديثة هو صعود اليمين الدينى القومى منذ الثمانينيات. و بالتالى يتم اليوم احترام كل الأفكار التى كانت تبدو فى الماضى مغالية فى القومية، متمركزة على العرق الذاتى، ذات هلع مرضى ضد الأغيار، وقتالية.

---

(١) انظر لوستيك ١٩٨٨ و سپرينزك ١٩٩١. تظهر الأحزاب وتختفى بسرعة فى الساحة السياسية المضطربة لليمين الإسرائيلى.

وإذا كان «راف كوك» قد ذكر فى كتاباته بوادر النهضة اليهودية ، فإن فضل تطويرها يرجع إلى ابنه الحاخام «زيفى يهودا كوك» وحوارييه فى مركز «هاراف» . وإذ لم يتم أخذ معتقدات «راف كوك» بشأن بداية العصر المسيانى بجدية فى عصره ، فقد قام ابنه ـ بفضل برنامج ذى أنشطة سياسية مسيانية بتأكيد أفكار والده ومعتقداته . واستناداً على فكرة أعلوية الشعب اليهودى ، أصر «كوك» الابن على الطبيعة الفريدة والمقدسة للشعب اليهودى ولكل يهودى حتى الصهاينة الملحدين أو المعادين للدين ، وكان يرى فى إقامة الدولة اليهودية الخطوة الأولى فى طريق قدوم المسيا ، وجميع مؤسسات الدولة ووسائل تسعى إلى قدوم المخلص ؛ وبذلك تكون الحكومة والجيش مقدسين(كوك ١٩٩١ : ٣٥٣) .

وعشية ٢ مايو ١٩٦٧ ، ألقى الابن «كوك» كلمة أثناء تجمع خريجى مركز «هاراف» . ورثى بحزن تقسيم أرض إسرائيل . فقد فككت خطة تقسيم الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ «أرض إسرائيل إلى قطع ، وهى إرث أسلافنا ، حيث أصبحت بعض أجزاء وطننا لدى الأجانب» وعاش هو بنفسه هذا الحزن فى غرفة أبيه الصغيرة ، بينما كان اليهود يرقصون فى الشارع . واليوم فى ١٩٦٧ ، متذكراً ذلك اليوم الحزين ومتأملاً كلمة يوئيل : «اقتسموا أرضى» (٣ : ٢) يصرخ بكل حزن :

> **أين الخليل؟ هل نسيناها؟ أين شكيم؟ هل نسيناها؟ أين أريحا ؟ هل نسيناها أيضًا؟ أين الجانب الآخر من نهر الأردن؟ أين كل قطعة أرض وكل ذرة ومتر مكعب من أرض الله؟ هل الأمر متروك لنا لنتخلى عن أى ملليمتر من هذه الأرض؟ . . . ثم أجاب : لا قدر الله . (كوك ١٩٩١ : ٣٣٨-٣٣٩) .**

وبعد ثلاثة أسابيع ، وقعت كل من القدس و الخليل وشكيم وأريحا فى أيدى إسرائيل التى كانت تسيطر على دولة ذات أراض محتلة مساحتها أكبر من دولة إسرائيل نفسها بثلاثة أضعافها ، و اقتنع أنصار «كوك» الابن أنه فى ذلك اليوم سكنته روح مقدسة ألهتمه ما قال (سپرينزاك ١٩٨٥ : ٣٧-٣٨) . وعززت الحرب الوحدة القومية لليهود داخل إسرائيل وخارجها و أعلنت بدء «إعطاء الأهمية الكبرى لتوسع الأراضى» (سپرينزاك ١٩٩١ : ٣٥- ٦٩) . أما بالنسبة للأكثر تديناً ، فمثلت الحرب صحوة على

المستوى الدينى و القومى. وكان احتلال القدس الشرقية وكل الأماكن المقدسة بمثابة برهان على بداية الخلاص الإلهى الذى يقوم على ثلاثة عناصر: أرض إسرائيل وشعب إسرائيل و توراة إسرائيل. وكان الجانب الدينى مستعدًا أن يملأ فراغ مثاليات الصهيونية التى ضعفت. واقتربت أيام قدوم المسيا، وكان يمكن تسهيل قدومه بالعملية السياسية، ولو اقتضى الأمر اللجوء إلى القوة. وتم تدريجيًا اكتشاف أن مثل هذه الأفكار لم تكن قاصرة على الحاخام «مائير كاهان» وإنما شاركه فيها عدد من الشخصيات اليهودية التقليدية الهامة فى القرن العشرين (هرتزبرج ١٩٩٦ : ٣٧).

يرى الحاخام «مائير كاهان» وتابعوه من حزب «كاخ» (حزب سياسى أسسه عام ١٩٧٢) أن أسس الدولة هى الدين والتوراة وليس الديموقراطية. فالصهيونية والديموقراطية الغربية غير متوافقتين. إن التوراة فقط التى تميز بين اليهودى وغير اليهودى، أما اليهودية العلمانية فما هى إلا إلحاد يتزيا بعباءة الصلاة. وتعطى التوراة الشرعية للدولة اليهودية لأن الله حرر شعبه من العبودية فى مصر وأعطى أرض الوعد لليهود و أمرهم بالعيش فى أرض إسرائيل. وليس هناك إلا التوراة التى تحفز أى يهودى للعيش فى منطقة بائسة وبدون مصالح، وهى كارثة كاملة من الناحية الجغرافية والمادية (كاهان فى ميرجى و سيمونوت ١٩٨٧ : ٣٨-٤٠). يجب أن يترك اليهود الشتات ويستقروا فى الأرض بأمر من الله. ويحدد الكتاب المقدس الحدود «أدناها من العريش شمال سيناء بما فى ذلك ياميت، وجزء من شرق نهر الأردن، وجزء من لبنان، وأجزاء من سوريا، وجزء من العراق حتى نهر دجلة» (ميرجى و سيمونوت ١٩٨٧ : ٥٤-٥٥).

يعيش اليهود منفصلين عن مجتمعاتهم بأمر من الله، مع علاقات محدودة مع كل ما هو أجنبى، بشكل يسمح لهم بالحفاظ على الثقافة اليهودية النقية، القائمةعلى التوراة. و بالاتفاق مع نظريات «كوك»، فإن «كاهان» مقتنع بأن الصهيونية تعجل بقدوم المسيا وأن إقامة دولة إسرائيل تشكل بداية عصر المسيا. ولهذه العناصر أهمية تلغى أى اعتبارات تخص السكان الأصليين، ولتفادى أى مشاكل فى المستقبل يجب ترحيل العرب باستخدام أقل قوة ممكنة. . إلا أن «كاهان» يرى أنه ليس لديهم أى حق أن يبقوا فى القدس، وسيفرح إذا فجر أحدهم مسجدى جبل المعبد (ميرجى وسيمونوت

١٩٨٧ : ٤٣-٤٨-٨٥-٨٦). وأكد «كاهان» إجماع كل الحاخامات ـ وبوضوح ـ على استبعاد العرب، وإن كان بعضهم يصرح بذلك فى السر فقط.

وبعد سقوطه فى انتخابات عام ١٩٧٧ و١٩٨١، تم انتخابه فى الكنيست فى يوليه ١٩٨٤ بنسبة ١,٣٪ من الاقتراع الوطنى. ومنذ السبعينيات وحتى اغتياله فى الخامس من نوفمبر ١٩٩٠، كان من طائفة الزيلوت الأكثر تشدداً بشأن تطبيق نموذج الكتاب المقدس فى الاستيطان على أرض إسرائيل (فريدمان ١٩٩٠، ١٩٩٢، سبرينزاك ١٩٩١). وكانت أيديولوجية «كاهان» المعادية للديمقراطية متناسقة مع التأويل الحرفى للتوراة. لا يمكن تخطئته على سعيه لتنفيذ الأوامر الإلهية فى التوراة، والتى لا تجيز طرد السكان الأصليين فقط، بل تأمر به. وقد لقى جمعه بين قيام دولة إسرائيل وبداية العصر المسيانى تعاطفاً حاراً فى معسكر غلاة القوميين الدينيين، أصحاب الرؤية الغائية للتاريخ.

وقد أحرجت مناهج «كاهان» الخاصة والعنيفة ولهجته العدوانية المؤسسة السياسية، وتم أخيراً حظر حزبه خلال الانتخابات، وأطلق عليهم « الجماعة المجنونة» فى المجتمع الإسرائيلى. ولكن كانت هناك طرق أكثر ذكاء وأقل إزعاجاً للتوصل لنفس الأهداف. وجددت حرب ١٩٦٧ الصهيونية الدينية وأظهرت قيمة الثقافة الصهيونية الحقيقية المعنية بنهاية العالم، والتى كانت محدودة فى بعض المدارس. وتأسست عدة حركات، مثل حركة «كل أرض إسرائيل» والتى أعلنت فى سبتمبر ١٩٦٧ أن غزو الأراضى العربية يشكل عملية لا يمكن التراجع عنها، وأن إسرائيل يمكنها أن تستوعب عدداً أكبر من المهاجرين، وأنها تستطيع إنشاء مستوطنات جديدة (سبرينزاك ١٩٩١ :٣٨-٤٣)

وأدت حرب يوم كيبور عام ١٩٧٣ التى أولها الحاخام «يهودا أميتال» على أنها إعادة تأكيد لعملية تحرير المسيا، والحاجة لاتخاذ إجراءات حاسمة لضمان تعزيز الوجود اليهودى على أرض إسرائيل. وأدى ذلك إلى تأسيس «جوش إمونيم» من قبل طلاب كانوا يدرسون فى مركز «هاراف». وتأسست الحركة فى فبراير ١٩٧٤ كحركة غير برلمانية بدلاً من أن تبقى مجموعة ضغط فى حزب (NRP) (سبرينزاك ١٩٩١ : ٦٤-٦٦). وبدت من أول الأمر كمنظمة فعالة، قوية التمويل، رفضت دائماً أن

تتحول إلى حزب سياسى، أو أن تساند بعض الأحزاب مهما كانت. وكان أعضاؤها من اليمين المتطرف ومن اليمين وحتى من اليسار.

استمدت الحركة أفكارها من تعاليم «كوك» الأب، ثم الابن الذى بقى الزعيم الروحى للحركة حتى موته عام ١٩٨٢ .وبالنسبة لـ «كوك» الابن وحوارييه، تعد حرب ١٩٦٧ مرحلة تحول حاسمة فى عملية التحرير المعقدة. وبما أن حدود أرض إسرائيل محددة فى الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين وليس بوضع إسرائيل قبل ١٩٦٧، كان لليهود الحق فى أن يطبقوا «أوامر الغزو»؛ وبالتالى أن يستوطنوا كل الأرض لحماية السيادة اليهودية عليها. وعندئذ فقط، يصيرون فى موطنهم الصحيح، وبالتالى فليس بإمكانهم على الإطلاق التخلى عن يهودا والسامرة (الضفة الغربية).

وكان سكان المنطقة العرب يتذكرون دائمًا مأمورية يشوع المقدسة. وكان من الممكن للعرب أن يبقوا لكن بشرط الموافقة على وضعهم كأقلية، وأن لا يثيروا مشاكل. وعندما يستوعبون أن الأرض يهودية، يمكن حينها إقامة علاقات صداقة. ويرى «زيفى يهودا كوك» أنه لم يتم أبدًا طرد العرب فى ١٩٤٨و ١٩٤٩ «لقد غادروا وحدهم سواء بسبب الجبن أو بسبب الخوف المبالغ فيه». إن المطالبة اليهودية بشأن الأرض ترتكز على مفهوم الإرث الذى يؤكده الكتاب المقدس والتاريخ. وعقب الهولوكوست ـ وهو رمز شر الأغيار وكراهيتهم العميقة لليهود ـ أصبح ضروريًا لليهود أن يستقروا فى دولتهم بعيدًا عن الأغيار، دعمًا لبعض أكثر روايات الكتاب المقدس الخاصة بتقاليد الهلع المرضى من الأجانب، والذاتية العرقية، مثل (عزرا ٦ :٢١، ٩ :١، ١٠ :١١ونحميا ٩:٢، ١٠ :٢٨، ١٣ :٣)

وبينما ركزت حركة «جوش» على استيطان اليهود فى الأراضى المحتلة، فقد اعتبرت نفسها أيضًا حركة تجديد للصهيونية. وبعد إقامة الدولة، استقرت الصهيونية على إنشاء مجتمع مادى حلت فيه المتعة الفردية محل أهداف الأمة ورسالتها، بينما قررت حركة «جوش» جعل عملية الخلاص الوطنى مستمرة كما أمرت التوراة، وكما ركزت نظريات «كوك». وكان الاستيطان فى يهودا والسامرة يشكل عنصرًا حاسمًا فى هذه العملية التى كان على كل يهودى أن يلعب فيها دورًا. وكان هذا الأمر يتعارض

بشكل كبير مع المفهوم التقليدى للمسيانية اليهودية التى تفضل موقفًا سلبيًا وغير مُسَيَّس فى انتظار قدوم المسيا الإعجازى. هذا بالإضافة إلى أن حركة «جوش» أقحمت عنصراً سياسيًا عنيفًا فى الصهيونية الدينية.

ومنذ بداياتها، كان يدير حركة «جوش» الحاخام «موشى ليڤينجر» الذى كان أحد نواتج مركز «هراف». وكان يعتبر أن المعركة من أجل الاستيطان اليهودى تمهد لقدوم المسيا. ويعد إنشاء إسرائيل الكبرى واجبًا مقدسًا مثل احترام يوم السبت. وتنبثق هذه الممارسات بشأن احتلال يهودا والسامرة من التأكيدات الأيديولوچية لتعاليم «راف كوك» وأفكاره. تمت عشرات المستوطنات على تلال يهودا والسامرا نتيجة إصراره ومثابرته فى تشبيه إقامة مستوطنات بالخليل وشكيم بإقامة مستوطنات تل أبيب والقدس، تنفيذًا لأوامر إلهية فى التوراة. وأنشأ المستوطنات الأولى بعد ١٩٦٧ (كفر الزيتون، كريات أربا والخليل) حاخامات شباب من خريجى مركز «هراف». رأوا أن الاستيطان تطبيق للتوراة مثلما كان غزو يشوع استمرارًا لتعاليم موسى ورسالته على الأرض. ورأوا أن كل استيطان جديد شهادة جديدة على اختيار الله لشعب إسرائيل وصدق التوراة وكلمة الرب وأنبيائه (انظر حزقيال ٣٦: ٣٤ - ٣٦ تم ذكره فى زفى يهودا كوك ١٩٩١: ٣٥١ - ٣٥٢). ويواصل اليوم «ليڤينجر» وأتباعه أهدافهم مرتدين ملابسهم السوداء التقليدية، وعلى رءوسهم قبعاتهم وطواقيهم، ورشاشاتهم على أكتافهم. وتم سجن «ليڤينجر» لمدة ١٠ أسابيع بتهمة قتل فلسطينى فى الخليل فى سبتمبر ١٩٨٨(*).

تتمثل سياسية حركة «جوش» فى توسيع بناء المستوطنات واستقرار مليون يهودى فى الضفة الغربية قبل نهاية الألفية الثانية، بشكل يجعل من أى حل وسط بشأن الأرض مستحيلاً، ويصبح ضم الأراضى المحتلة الحل الوحيد و النهائى(**). وبما أن حركة «جوش» لم تلق مساندة كبيرة من قبل اليهود خارج إسرائيل، فقد سعت إلى تشجيع اليهود الذين يعيشون فى إسرائيل للاستقرار فى الجولان والضفة الغربية وغزة.

(*) لا تعليق! - المترجمة.

(**) هل نجحت حركة «جماعة المؤمنين - جوش إمونيم» فى فرض أچندتها وحلها على أرض الواقع؟ - المترجمة.

ويرى مسئول نشاط الاستيطان فى الحركة «هنان پورات» أن: العمل فى المستوطنات يعطى تجدداً روحيّا، وهو علاج ضد المادية والإباحية التى غزت الوطن. ولهذا السبب انتقلت قيادة الدولة من المعسكر العلمانى إلى المعسكر الدينى ـ القومى (ذكر فى ميرجى و سيمونوت ١٩٨٧ : ١٢٦ - ١٢٧).

بسبب عدم انتمائها السياسى لأى حزب، أثرت حركة «جوش» بشكل كبير على جميع الحكومات. ونظم حزب العمل أول حركات الاستيطان، وبتقلد الليكود برئاسة مناحيم بيجن الحكومة عام ١٩٧٧، أعطت الحكومة الجديدة لحركة «جوش» أعلى مستويات الشرعية الحكومية، وأنهت كل الحذر الذى لازم حكومات العمال فى عملية بناء المستوطنات (سپرينزاك ١٩٩١ : ٧١ – ١٠٥). وعرف «ليڤينجر» كيف يستغل تضارب الآراء داخل الحكومة ليقيم مستوطنة كريات أربا. هذا بالإضافة إلى أن زوجته «ميريام» قادت فى الثالثة صباحًا فى مارس ١٩٧٩ عملية احتلال أرض فى الخليل لتصبح نواة مستوطنة لأربعمائة يهودى يعيشون فيما يشبه قلعة وسط ١٥٠٠٠٠ فلسطينى.

ووقعت كل الحكومات الإسرائيلية تحت ضغوط «ليڤينجر». وواصلت الحركة تطبيق سياسة الأمر الواقع. وقد أنشأت فى بادئ الأمر مستوطنات غير شرعية، وبعد ذلك حصلت على موافقة الحكومات، بل ومباركتها ومساعدتها. ولا تبالى حركة «جوش» نهائيّا بالعواقب التى تلحق بالسكان الأصليين، فهى ترى أن الأرض ملك لليهود بأمر إلهى، وهذا أمر حتمى. ولا يتم تطبيق المبدأ العالمى بشأن حق تقرير المصير إذا تعلق الأمر بدولة إسرائيل، وبالتالى فإن المطلب الفلسطينى بشأن تقرير المصير لا يعنى شيئًا للصهاينة. فالفلسطينيون ليسوا يهوداً، وفى هذا الصدد يجب معاملتهم بتسامح واحترام لا أكثر(*) (سپرينزاك ١٩٨٥ : ٣١ – ٣٢). وللفلسطينيين ثلاثة خيارات: أن يقبلوا بتفسير الصهيونية وفقًا لحركة «جوش» والحصول على الحقوق المدنية، أو القبول بقوانين الدولة دون الاعتراف رسميّا بالصهيونية والحصول على جميع الحقوق التى يتمتع بها أى أجنبى مقيم، أو الحصول على حوافز والسفر إلى بلد عربى.

(*) أين هو؟ ـ المترجمة.

وترى حركة «جوش» ـ وفقًا لأيديولوچيتها ـ أن الفلسطينيين ما هم إلا محتلون غير شرعيين، وهم يشكلون إذن تهديداً بالنسبة لعملية الخلاص. ولا يمكن تقديم حقوقهم على الإرادة الإلهية. وبالتسلح بالتوراة المعصومة، والتى لا تقتصر على تبرير العنف، بل تقدسه بالأوامر الإلهية، وباتباع نموذج يشوع المجيد، تواصل حركة «جوش» سياستها التوسعية دون الاكتراث بالفلسطينيين. وترجع أيديولوچية الحركة إلى الفكر الدينى القومى، وهى تمثل جزءاً من الثقافة الدينية الأكثر توسعًا التى انتشرت سريعًا فى الخمسينيات (سپرينزاك ١٩٨٥ : ٢٧). ويرجع سبب نجاح الحركة إلى قدرتها على تبنى القيم الأولية للصهيونية فى وقت فقدت الصهيونية أهم ما يشكل تصورها وفكرها.

وأسس كل من البروفيسور «يوڤال نيمان» و «جولا كوهين» ـ وهما من المؤيدين السابقين لحزب الليكود ـ حزب Tehiya (حزب النهضة) عام ١٩٧٩، حيث صُدما «بخيانة» بيجن فى كامب ديڤيد. ولحقهما بعد ذلك أعضاء من حركة «جوش إمونيم» وحزب أرض إسرائيل، وباركهم «راڤ كوك». وعلى الرغم من أن «نيمان» ملحد إلا أنه يرى أن التراث مهم للغاية للقيام بحركة ثورية تدافع بقوة عن الإرث الروحى للشعب اليهودى، وطالب بالرجوع إلى الكتاب المقدس، كما حافظ على الحوار مع المجموعات القومية والدينية المتطرفة؛ فقد تسهم نهضة الصهيونية فى إيقاف الانحدار الأخلاقى للشباب الإسرائيلى. ويرى حزب النهضة نفسه بمثابة جسر بين اليهود المتدينين والعلمانيين (سپرينزاك ١٩٩١ : ١٦٩).

وتحت الضغط الاستعمارى الواسع والمستمر، تخلى العرب عن يهودا والسامرة مثلما تخلوا عن الجليل. وكان «نيمان» يسعى إلى الحصول على ٢٠ مقعداً أثناء انتخابات ١٩٨١، إلا أنه لم يحصل إلا على ثلاثة مقاعد، ثم حصل على ٥ مقاعد عام ١٩٨٤. ويرى حزب النهضة أنه يجب على إسرائيل أن لا تتخلى عن ذرة أرض، ويجب أن لا تسحب قواتها، الأمر الذى سيؤدى حتمًا إلى قيام الدولة الفلسطينية. وكان يتعين إذن ضم الأراضى المحتلة بشكل نهائى بفضل توسع سياسة الاستعمار والاستيطان. وقد ظهرت جيداً قوة الائتلاف بين الصهاينة العلمانيين والصهاينة المتدينين فى حزب النهضة، عندما التحق بالحزب كل من «الچنرال رافائيل إيتان» رئيس أركان الجيش الإسرائيلى من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٣، والحاخام «إليزير والدمان». فبعد أن

غادر الجيش، انضم «إيتان» إلى حزب النهضة مع مجموعته، وأعلن عن برنامجه بشأن ضم الأراضى المحتلة، والتعامل بصرامة مع العرب العنيدين، مستخدمًا أسلوب العقاب الجماعى، حيث أصر على توقيع عقوبات على آباء وأمهات من يرتكبون اعتداءات من الشباب « ليس من شأننا حل المشكلة الفلسطينية، هناك ١٠٠ مليون عربى، و يمتلك السعوديون فائضًا فى ميزانيتهم قدره ١٣٠ بليون دولار، فليجدوا لهم حلاًّ» (ميرجى و سيمونوت ١٩٨٧ : ١١٣). وتم انتخاب «إيتان» فى الكنيست فى يوليه ١٩٨٤.

وفى الفترة نفسها، برزت حركة سرية ليهود متطرفين، شكلت اتحادًا واسعًا يضم نشطاء من المستوطنين، حيث ينتمى بعضهم إلى حركة «كاخ» وحركات دينية أخرى تشاركت كلها فى أيديولوجية «كوك»، وآخرون يتبنون أفكار المجموعات المغالية فى القومية من قبل قيام الدولة، وكان أعضاء هذه الحركة يرفضون تبعية حركة «جوش» للحكومة، وتخطيطات «كاهان»، كما كانوا يرفضون أى حل وسط مع الحكومة العلمانية، ويرون ـ وفقًا لتراث الكتاب المقدس ـ أن محاربة الأعداء واجب مقدس. ومثل «كاهان»، كانوا يرون أنه لا بد من طرد العرب ورفض الديموقراطية، وأنه يجب انتزاع الحرم الشريف (معبد الجبل لديهم) من المسلمين. وكفلت لهم نقاوتهم الدينية، وتأويلهم المتقن للكتاب المقدس، بالإضافة إلى انضمام حاخامات بارزين لهم، وزنًا معتبراً داخل اليمين الإسرائيلى. وصدم إلحاحهم على دعم الإرهاب اليهودى الداخلى ـ بخلاف المستورد من أمريكا، مثل نموذج كاهان ـ المؤسسة الإسرائيلية، التى تناست نشاطها الإرهابى فى الماضى ليتم إلصاق الإرهاب اليوم بالبربرية العربية. و درس «سبرينزاك» الأيديولوجيات اللاهوتية لهذه الجماعات السرية والطريقة التى لقوا بها تأييد الحاخامات المهمين، والتى نقلت الإرهاب اليهودى من الهامش إلى القلب، وأصبحت جوهرية فى المناقشة بشأن هوية اليهود ومصيرهم (١٩٩١ : ٢٥٢ - ٢٨٨). وخلال ١٢ عامًا كان يتخلل هذه الحركة المستوحاة من التوراة والتى نشأت داخل المستوطنات غير الشرعية فى يهودا والسامرة، عناصر كانت تشجع ليس فقط الأعمال غير الشرعية بل أيضًا إرهابًا أعمى، وحتى إذا كانت تصطدم بالأفكار الليبرالية الغربية، إلا أن هذا التطور الأيديولوجى يتطابق مع تفسير خاص جدًا لتراث الكتاب المقدس عن أرض إسرائيل.

وفى الساحة السياسية الإسرائيلية التقليدية، تم إعادة انتخاب الحاخام «إليزير والدمان» فى الكنيست فى يوليه ١٩٨٤، وبصفته حواريًا للحاخام «زفى يهودا كوك» فقد أصبح الرأس المدبر للأمور الدينية فى حزب النهضة. وأسس مع «ليفينجر» مستوطنة كريات أربا، التى أصبحت المرتع الخصب لدى الحاخامات المستوطنين الذين انتشروا فى الضفة الغربية ومرتفعات الجولان. وكان «والدمان» يخشى تشتت المجتمع الإسرائيلى بين قطبى الجماعات الدينية، والجماعات العلمانية، وبرر انضمامه لحزب النهضة مع العلمانيين مثل «نيمان» و«كوهين» و«إيتان»، بأنه يؤمن بإخلاصهم للصهيونية و للشعب اليهودى ولأرض إسرائيل، كما كان يؤمن بأفكارهم الاجتماعية وفكرهم الرائد (انظر ميرجى وسيمونوت ١٩٨٧ : ١١٥). وقد تم إجبار حزب النهضة على إدانة الإرهاب اليهودى، لكن بقى «والدمان» غامضًا، حتى اتُّهِمَ بالتحريض على هجوم ضد رؤساء بلديات عرب عام ١٩٨٠، إلا أنه تم الإفراج عنه لَعدم كفاية الأدلة. ويرى «والدمان» أن القانون الإلهى هو الذى يفرض أن لا يترك اليهود شبرًا من أرض الوعد: «أعطانا الله عام ١٩٦٧ فرصة فريدة إلا أن الإسرائيليين لم يجيدوا استغلالها. لم يحتلوا الأرض التى أتوا لغزوها. . . . . وكأنهم رفضوا هدية الله، مع شكره فى نفس الوقت. هذا ما أدى بالله إلى إنزال معاناة حرب يوم كيپور على إسرائيل عقابًا لها» (انظر ميرجى وسيمونوت ١٩٨٧ : ١١٤).

وفى ١٩٨٧، ترك «رافائيل إيتان» حزب النهضة وأعاد إنشاء حزب «تزومت»؛ حيث كسب مقعدين فى انتخابات ١٩٨٨. وبعد أن فاز بأربعة مقاعد عام ١٩٩٦، تم مكافأته بانضمامه للِّيكود، وتم تعيينه وزيرًا للزراعة والبيئة فى حكومة «نتانياهو».

ويدل تولى الحاخام «حاييم دروكمان»، وهو ناشط قديم فى «جوش» وحوارى «كوك»، للمنصب الثانى فى حزب (NRP) على تشدد المعسكر الدينى. وعقب خيبة أمله من موقف الحزب بشأن مسألة إسرائيل الكبرى، أعيد انتخابه عا م ١٩٨١ على قائمة حزبه «ماتزاد ـ Matzad»؛ وعشية انتخابات عام ١٩٨٤، انضم حزب ما تزاد إلى حزب (Poalei Agudat Israel) (وهو حزب عمالى متدين) لتشكيل حزب «التقليد ـ Morasha »، والذى أصبح ائتلافًا للحركات الرائدة لإسرائيل الأولى والأصولية الدينية، وحصل على مقعدين فى الكنيست. ويرى دروكمان أنه: «لا يمكن فصل

الصهيونية عن التوراة، وإلا أمكننا أن نقول إننا نؤمن بالتوراة ولكن لا نؤمن بالسبت. وإذا كنت أؤمن بالتوراة، فأنا أؤمن أيضًا بالصهيونية» (ميرجى وسيمونوت١٩٨٧ : ١٦٧). وبعد ذلك، حل دروكمان حزب الموراشا وانضم إلى (NRP) بعد أن تأكد أن ذلك سيسمح بانتشار أعضاء حركة «جوش إمونيم» على جميع أصعدة الحزب.

ومنذ ١٩٨٥، اقترح متطرف قومى آخر يدعى«ريهاڤام زيفى» «المفاوضة» على ترحيل كل عرب الأراضى المحتلة إلى الدول العربية المجاورة. وأسس حزب «الوطن ـ Moledet»، وكان برنامجه الوحيد يستند إلى ترحيل العرب. وتم انتخابه عام ١٩٨٨ فى الكنيست مع زميله البروفسور «يائير سپرينزاك». وفى عام ١٩٨٤، كان أغلبية المتطرفين يعتبرون «كاهان» عنصريّا لأنه نادى بنفى العرب؛ إلا أنه فى عام ١٩٨٨، أصبحت الفكرة مقبولة، وداخلة فى الجدال الوطنى العام، برغم المتاعب التى يثيرها خلق مشكلة لاجئين عرب جديدة للصهيونية. ولقى شعار «زيفى»: «نحن هنا، وهم هناك، والسلام لإسرائيل» استحسانًا لدى الكثيرين. وتبين كتاباته الموقف المركزى للترحيل فى الأيديولوچية الصهيونية وممارساتها بشأنه، وتوضح نفاق اليسار الذى ـ منذ أن أقام الكيپوتز على الأراضى العربية ـ اتهمه بالعنصرية (انظر سپرينزاك ١٩٩١ : ١٧٣ ـ ١٧٤).

الحاخامات التقليديون

لقد أدانت جميع الأحزاب تقريبًا، والأغلبية العظمى من الحاخامات التقليديين ما يُسمى: «عملية السلام» بين إسرائيل و الفلسطينيين والدول العربية المجاورة. وخلال النقاش الطويل بشأن التساؤل: هل يجوز التفريط فى الأرض اليهودية (أى الأراضى التى استولى عليها اليهود من العرب) لغير اليهود، لم يؤخذ بعين الاعتبار إطلاقًا حقوق غير اليهود. وتأتى بعض أعلى الأصوات ضجيجًا من المعسكر الدينى التقليدى.

وكان بعض الحاخامات التقليديين يعلنون دوريًا عن تفسيراتهم بشأن تراث الكتاب المقدس عن الأرض. وجَسَّد الحاخام «شلومو جورين» (١٩١٧ - ١٩٩٤) ـ وكان كبير

حاخامات إسرائيل (١٩٧٣- ١٩٨٣)، وكذلك كبير الحاخامات العسكريين ـ تغلغل التطرف الديني والسياسي ـ الذي أنشأ حركة «جوش إمونيم»، لدرجة أنه طلب من الجنود أن يعصوا الأوامر عندما يتعلق الأمر بنزع مستوطنات الأراضي المحتلة. ونقد «التنازلات» المقدمة للفلسطينيين و أمر ببناء معبد يهودي على جبل المعبد وكتب: «إن ياسر عرفات يستحق الموت» (لانداو ١٩٩٤). وفي الثامن عشر من ديسمبر عام ١٩٩٣، وزع «جورين» منشورات في المعابد اليهودية في الأراضي المحتلة مؤكداً فيها أن اليهود لهم الحق بأمر إلهي في أرض إسرائيل المذكورة في الكتاب المقدس، ونفى في اليوم التالي أنه دعا إلى قيام حركة تمرد، مدعياً أن القانون الأعلى في إسرائيل هو قانون موسى: «أي أمر يتعارض مع تعاليم موسى، يشكل تمرداً ضد موسى وضد التوراة وضد اليهودية. ولا يمكن اعتبار أي رفض للأوامر العسكرية تمرداً إذا كان هذا الرفض مبنيّا على إطاعة تعاليم موسى» (ديريك براون في القدس، جارديان، الإثنين ٢٠ ديسمبر ١٩٩٣).

ورشح الحاخام «بن يوسف» ـ الذي كان يُطلق عليه في السابق باروخ جرين ـ نفسه لمنصب عمدة القدس عام ١٩٩٣، وكان تفسيره للتوراة والعمل بها يقضي بأن تكون القدس يهودية تماماً:

> **يجب ألا يكون هناك مساجد ولا كنائس في القدس... يجب ألا يسمح لأي غريب عن تقاليدنا بأن يعيش في القدس... يمكن أن يأتوا كسياح... نعم أوافق، ولكن ليعيشوا هنا.. لا أبداً. يجب ألا يكون في المدينة عبدة أوثان... القدس ليس لها حدود. يجب أن تتوسع بلا نهاية إلى أبعد الحدود والأفضل حتى دمشق (في. إس. لايبوويتز ١٩٩٣).**

الآراء المعارضة

وبالطبع لقيت أيديولوچية حركة «جوش إمونيم» ومناهجها، وكذلك الجماعات المتطرفة الأخرى ـ وهي تنتشر وتتطور ـ معارضة لدى العلمانيين والمتدينين على حد

سواء. إلى جانب الحركات الدينية التى لا تولى اهتمامًا لمفهوم الدولة أو التى تعتبرها ردة[1]، وشهد الاتجاه الدينى تطور العديد من الجماعات التى تدافع عن حقوق الإنسان (أوزقى شالوم، نيتيقوت شالوم، حاخامات من أجل حقوق الإنسان، إكليروس من أجل السلام، إلخ) والتى كانت تركز على أعلوية القيم الأخلاقية لليهودية أكثر من الأرضية التى تركز عليها «جوش». إلا أن هذه الجماعات كانت غالبًا ما تهمل الظلم الأساسى الذى صاحب الصهيونية، وكانت تركز انتقاداتها فقط على الاعتداءات المرتكبة فى الأراضى المحتلة ضد حقوق الإنسان. ويمكن أن نتساءل عن حماستهم فى اتباع التوراة، هل أصابتها عدوى القيم التى نشأت فى عصر التنوير؟ أو اتجهت للاعتدال بسبب اتباعها التعاليم العالمية لتقاليد أنبياء بنى إسرائيل؟

اتهم اللورد «چاكوبوڤيتس» المعسكر التقليدى بمساندة سياسة القوة والعنف مقابل مصالح مالية. ويتحسر على إفلاس القيم الأخلاقية التراثية لديهم، كما أنه يتهم الحاخامات التقليديين بتبنى مواقف الرضا عن النفس وادعاء التقوى، بينما هى، تبعد كل البعد عن التراث النبوى. وقد حافظ اليهود المتدينون على بقاء الحكومة الإسرائيلية بفضل مساندتهم غزو لبنان، تاركين للعلمانيين مهمة تفضيل الضمير وإنقاذ الشرف اليهودى. وهذا عكس منحرف للأدوار (Jewish Chronicle، ١٨ أغسطس ١٩٩٥، ص ١٧).

وفى سبتمبر ١٩٩٥، نشر عدد من الحاخامات الذين ينتمون للجناح القومى لمجموعة دينية تقليدية وثيقة «لجنة العمل لإلغاء خطة الحكم الذاتى». وأعرب الحاخام

(١) يؤكد الحريديم المغالون أن بقاء الشعب اليهودى مرهون قبل كل شيء باحترام التوراة، وأن بناء مجتمع مبنى على التوراة يسبق فى الأهمية امتلاك أرض معينة. فمجمل اهتمامهم هو أن تستحق الأرض حمايتها. وموقفهم غير مبال، أو غير معاد للدولة. ويؤمن يهود مى شيريم بأن إسرائيل هى عمل الشيطان. أما يهود إن إيوتورى كارتا، فيرفضون وجود دولة إسرائيل لأن وجودها يعنى انتهاك المقدسات؛ لأن اليهود يجب أن ينتظروا المسيا حتى تتكون دولتهم. وتأمل المجموعة أن تتنازل دولة إسرائيل عن الأرض لصالح دولة فلسطين ويعتبر أعضاء الحركة أنفسهم «يهودًا فلسطينيين». ويسعى الحاخام هيرش، وهو زعيم الحركة إلى تدمير إسرائيل. وكذلك حركة ـ ساتمار شايديم، فى بروكلين بنيويورك، حيث تعادى الصهيونية، ويقوم أعضاء هذه الحركة بتنظيم مظاهرات معادية للصهيونية أمام قنصلية إسرائيل. ويقول الحاخام يوئيل تايتلباوم ـ وهو الزعيم السابق للحركة إنه يفضل أن تختفى مجموعته بدلاً أن تعيش فى دولة يهودية لم يؤسسها المسيا (جيوفروى پول، Jewish Chronicle، ٨ يوليه ١٩٩٤، ص ٢٢).

المتوفى حديثًا وأحد أهم حاخامات زمانه «يشاياهو لايبووتيز» عن ازدرائه المجموعات الدينية كلها، واعتبر الخلط بين الدين والسياسة بمثابة سم حقيقى. وفور حرب الأيام الستة، عندما كان كل الوطن تحت تأثير الفرحة الدينية، قال «هذا النصر البراق سيصبح كارثة تاريخية وسياسية بالنسبة لدولة إسرائيل». وكان يعتبر الجدار الغربى حانة، يُسعده بصدر رحب إرجاعها للعرب (برمانت ١٩٩٤ : ٢١).

وقد انتشر فى أوساط العلمانيين عدد كبير من المجموعات التى تدافع عن حقوق الإنسان (السلام الآن، B'Tselem ACRI، النساء الإسرائيليات ضد الاحتلال، النساء ذوات الملابس السود، Yesh Gevul، أهال ضد التدهور الأخلاقى، وحركات أخرى) (هيرويتز ١٩٩٢ : ١٩٧-٢٠٨). ولكن علىً عكس حركة «جوش» التى كان لها وجود على أرض الواقع، ترتكز هذه الحركات على المظاهرات والكلمات، مثلما رأيناها مؤخرًا عند قبر «إسحق رابين» الذى طهره اغتياله من جرائمه ضد الإنسانية، وأصبح أحد قديسى معسكر السلام، والذى أعلنت مصافحته ـ بعد تردد ـ لـ «عرفات» فى ساحة البيت الأبيض، المصحوبة بتوقيعه الإعلان المبدئى فى الثالث عشر من سبتمبر ١٩٩٣، سقوطه السياسى. بينما أعلنت هذه الأحداث [إعلان المبادئ] بالنسبة للعالم عن أمل جديد وبداية جديدة، إلا أنه بالنسبة للمتدينين المسيانيين، وغلاة القوميين، فقد عنت كارثة ونهاية حلم الدولة اليهودية ـ الغارقة فى الدماء غرب الأردن ـ الموحدة. لذلك كان يجب إزاحة رابين الخائن، والعقبة أمام المخطط الإلهى.

خاتمة

على الصعيد الثقافى العالمى، يعتبر العداء للسامية اليوم شكلاً من أشكال التمييز الاجتماعى والقانونى و السياسى، و يجب حل مشاكله داخل هياكل الدول على أساس الحقوق المدنية. إلا أن «ثيودور هيرتزل» كان يرى أن حل المشكلة اليهودية لا تكفله فقط سماحة وتحرر [ليبرالية] الدول التى تأوى اليهود؛ وإنما يجب إنشاء دولة يعيش فيها اليهود على أرض يهودية خالصة تتماشى مع هويتهم اليهودية وانفصالهم. وعلى الرغم من أن «هيرتزل» نفسه اندمج فى المجتمع الأوروبى، إلا أنه رأى أن

المجتمعات الأوروپية كانت غير قادرة على التسامح مع اليهود؛ لأنهم كانوا يشكلون أجانب، ولهم سلوكيات مختلفة. وباللجوء إلى الاستعمار القومى، تجنب «هيرتزل» أى حل دستورى أو أى حل يعتمد على الحقوق المدنية.

ومنذ تبلورت مبادئ الصهيونية ابتداءً من تسعينيات القرن التاسع عشر، إلى تنفيذ تلك المبادئ، كانت أيديولوچية سياسية، شاركت القومية والاستعمار الأوروپى فى القرن التاسع عشر فى كثير من الأوجه، رغم اختلاف الصهيونية فى بعض الأوجه الحاسمة. ومثلها مثل العنصريات الأوروپية التى كانت تنسب إلى السكان الأصليين صفات التدنى والتخلف، بدأت الصهيونية فى تحسين وضع اليهود فى العالم أجمع على حساب السكان الأصليين فى فلسطين. وحتى ينجح برنامج الصهيونية، كان يحتاج مساندة الدول العظمى، فى بادئ الأمر بريطانيا وفيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية. حيث سيؤدى تواجد دولة صديقة واستقرارها فى الشرق الأوسط ذى الأهمية الاستراتيچية، إلى خدمة مصالح السياسة الخارجية لبريطانيا و أمريكا.

وعلى الرغم من أن الغزو الصهيونى لفلسطين قد يتشابه كثيراً مع بعض حالات الاستعمار السابقة(الهجرة الأوروپية لأمريكا الشمالية أو هجرة الإنجليز إلى أستراليا أو نيوزلندا) إلا أنه يتميز بخصائص فريدة. فأولاً، تمت هجرة اليهود فى بضعة عقود بدلاً من قرنين أو ثلاثة قرون. وثانيًا، ظهر الاستعمار الصهيونى بعد وصول الاستعمار الأوروپى إلى ذروته فى وقت بدأت فيه الدول المستعمرة تحترم حق تقرير مصير الشعوب، وفى وقت بدأت فيه فكرة الاستعمار فى الذبول. ثالثًا، جرت جميع مراحل الاستعمار الصهيونى خلال فترة انتشرت فيها وسائل الإعلام الجماهيرية بشكل واسع. و على الرغم من ذلك، نجح الصهاينة فى أغلب الأوقات، وإلى وقت قريب، فى أن يمثلوا أنهم ضحية بريئة حصلت أخيراً على حقها العادل.

ولكن الأمر الغريب هو أن الاستعمار الصهيونى حظى بمساندة واسعة من قبل الديانتين المسيحية واليهودية على حد سواء، فقد اعتبر رجال اللاهوت والدوائر الدينية أن الحركة الصهيونية متوافقة مع نبوءات الكتاب المقدس، أو على الأقل اعتبروا أنها ليست أكثر مما يستحقه اليهود بناءً على الوعد الإلهى بالأرض.

وتستمد الصهيونية جزءًا كبيراً من قوتها من تفسيرها الحرفى للكتاب المقدس بشأن الأرض، وبعض النصوص الخاصة بالمسيانية، فى الوقت الذى تغفل فيه نصوصًا أخرى عن حقوق السكان الأصليين. ولكن بحثًا عن الشرعية أمام القانون الدولى، ترتكز الصهيونية فى بنائها دولة إسرائيل على «التناخ ـ Tanakh» [أسفار موسى]، ولكن ليس ذلك بكاف، فهو يشبه أن تزعم إسپانيا والبرتغال ملكيتهما للعالم الجديد: أمريكا، بناءً على أوامر البابا نيكولا الخامس والبابا ألكسندر السادس (لامدريد ١٩٨١ : ٣٤٦). وإذا أخذنا بعين الاعتبار وضع السكان غير اليهود فى فلسطين، فنحن مجبرون على أن نلاحظ التباين بين المبادئ المعلنة فى ديباجة إعلان الاستقلال(١٤ مايو ١٩٤٨) والتكاليف الحقيقية للمشروع:

> **ستفتح دولة إسرائيل الباب لرجوع المهاجرين اليهود والمنفيين. كما ستحقق الدولة التطور لصالح جميع سكانها، وستكون قائمة على الحرية والعدالة والسلام، مثلما أعلن ذلك أنبياء إسرائيل. وستحقق الدولة المساواة التامة فيما يتعلق بالحقوق السياسية والاجتماعية لجميع السكان، دون الأخذ بعين الاعتبار الديانة أو الضمير أو اللغة أو التعليم والثقافة؛ حيث ستحمى الأماكن المقدسة لكل الأديان وستحترم مبادئ ميثاق الأمم المتحدة.**

يظهر فى بعض تجليات النصر الصهيونى، أن على السكان الأصليين تقدير مسارهم السلبى للخلاص بفضل رجوع اليهود لوطنهم. وتتوفر بكثرة المراجع بشأن المفهوم اليوتوپى لوعد الله لإسرائيل « يُساهم اتحاد الأرض والشعب [الإسرائيلى] فى دفع العالم فى اتجاه مملكة الله» (بوبر ١٩٧٣ :٤٧) بينما يمكن اتهام أمم أخرى تطرد السكان بسرقة الأراضى وانتزاع ملكيتها من السكان الأصليين. .

> **إلا أن اتهام إسرائيل بذلك غير عادل؛ لأن دولة إسرائيل تتصرف بأمر إلهى، وهى تعى أن من حقها فعل ذلك. . . . لا يوجد أبدًا أمة سمعت وقبلت الأمر الإلهى مثلما كان الأمر لإسرائيل. . . فى كل مرة كانت إسرائيل تطبق الوصايا كانت فى طريق الحق، وهى فى طريق الحق طالما تطبق الوصايا الإلهية. وفى هذا الإطار يجب فهم هذه العلاقة الفريدة بالأرض. وعندما يكون الغزو فى بعض الظروف التاريخية مصحوبًا بالطاعة والإيمان، فليس هناك سرقة (بوبر ١٩٧٣ : ١٤٦).**

وبالنسبة لـ «أندريه نهير»، فإن فلسطين تفتح الباب للوجود اليهودى. إنه يدعى أنه متخصص فى علم اللاهوت الجغرافى، ويساند الرأى الذى يقول إن التوجه إلى الأرض يجب أن يعجل بتخليص العالم وقدوم المسيا (١٩٩٢ :٢٢-٢٣). إلا أنه يجب احترام تعاليم التوراة الروحية والأخلاقية، و إلا ستطرد الأرض الإسرائيليين مثلما طردت الكنعانيين فى الماضى «هؤلاء الذين أعطاهم الله الأرض فى لحظة من الطيش العجول(*) hasty imprudence» (نهير ١٩٩٢ : ٢٠). وتعد دولة إسرائيل بمثابة المصلح بين اليهود، والمسيحيين والمسلمين، المقدس والمدنس، وبين اليهود الذين ليس لديهم نفس التصور بشأن قدوم المسيح(١٩٩٢ :٢٧- ٢٩).

لا يظهر لدى مثل هذا «الإصلاح» القائم على عودة اليهود، بل أرى الإذلال والإهانات اليومية للفلسطينيين، وانتزاع أراضيهم وطردهم منها.

وليس هناك شك فى أن المؤسسة الدينية اليهودية، أصبحت اليوم ـ وقد استغرقت وقتًا طويلاً للانضمام للصهيونية ـ توافق على كل هذه الممارسات. وبالنسبة لكثير من اليهود المتدينين «تشكل دولة إسرائيل التعبير الجماعى الأكثر قوة لليهودية والتطور الأكثر أهمية فى الحياة اليهودية منذ الهولوكوست» (چوناثان ساكس، كبير الحاخامات فى بريطانيا). أكثر من هذا، فإن الجماعات الدينية فى طليعة معارضى «الحل الوسط» مع الفلسطينيين (وهو تعبير مخفف عن عبارة «إعادة الأرض للفلسطينيين»)؛ الذى يوافق عليه قلة قليلة من الحاخامات التقليديين، بينما ترفضه تمامًا الكثرة الغالبة منهم. ومن المقلق أن نرى أن رجال الدين اليهود لا يولون اهتمامًا للفلسطينيين الذين دفعوا ثمنًا غاليًا لإسرائيل. ولكن وفقًا لروايات الكتاب المقدس، لم يول يشوع اهتمامًا كبيرًا بالسكان الأصليين.

تقوض المأساة الفلسطينية زخارف إنجازات الصهيونية المقدسة؛ حيث أدى قيام الدولة اليهودية إلى استبعاد أغلب الفلسطينيين ونفيهم، وتدمير معظم قراهم، واللجوء الدائم للعنف وإرهاب الدولة بالحروب والعمليات العسكرية، كما تلطخ الإهانة الدائمة للشعب الفلسطينى والقائمة الطويلة للأعمال الوحشية والإذلالية التى لحقتهم، إنجازات الحلم اليهودى العرقى والقومى والاستعمارى فى القرن التاسع عشر. والأكثر إيلامًا من الناحية الأخلاقية والدينية، أن الأساس الأيديولوچى فى دعم

(*) ونستغفر الله من نقل ذلك ـ المترجمة.

الإمبريالية الصهيونية، والعائق الرئيسى أمام احترام حقوق السكان الفلسطينيين ، يأتى من الدوائر الدينية، التى ترى روايات الكتاب المقدس عن الأرض أوامر واجبة التنفيذ. لقد جعل السلوك الشرير للصهاينة مع الفلسطينيين ـ مبكرًا، منذ عام ١٩١٣ ـ «أحاد هاعام» يخشى المستقبل الذى يتسلط فيه اليهود قائلاً «إذا كان ذلك هو المسيا، فلا أريد أن أرى قدومه» (ليهن ١٩٨٨ : ١٣).

***